جوكاستَ

للكاتب العظيم

أناتول فرانس

تعريب

عبد المنعم حسين

الطبعة الأولى — يناير ١٩٣٢

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة عطايا بباب الخلق بمصر

UNIVERSAL
LIBRARY
OU_191045
UNIVERSAL
LIBRARY

OUP—880—5-8-74—10,000.

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ۸۳ ع ۳ Accession No. A 697

Author ج ف — فرانسس زانا تول

Title چلوکا سمٹ

This book should be returned on or before the date last marked below.

جوكاست

للكاتب العظيم

أناتول فرانس

تعريب

عبد المنعم حسين

الطبعة الأولى — يناير ١٩٣٢

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة عيطايا بباب الخلق بمصر

تقدمة

أناتول فرانس(١)

فى حى «كى ملاكى» بمدينة پارى، ولد أناتول فرانس فى السادس عشر من ابريل سنة ١٨٤٤ . وأسمه الحقيقى جاك أناتول تيبو . وأناتول ليس من ذؤابة الأشراف . فأبوه كان بائع كتب . وكانت مكتبته المملوءة بالكتب الأدبية والصور الفنية ملتقى كثير من الأدباء والشعراء فكان أناتول يجلس منصتاً لأقوالهم ومجادلاتهم بشغف زائد . وقد اشتغل ببيع الكتب فى دكان أبيه كما كان أميل زولا يبيعها فى بدء حياته عند «هاشيت» . والتحق بجامعة ستانسيلاس بپارى وكان لا ينفك يدرس الفن وتاريخ الأدب . وينهل من معين «دارون» و «سبنسر» و «تين» و «رينان» ويؤازر فى تحرير بعض المجلات مثل «صياد التراجم» و «الجريدة المقفاة» وفى الرابعة والعشرين من سنى حياته ألف رسالة عن «الفرد دى فينى»

---

(١) نشر هذا المقال بجريدة اليوم

وتردد أناتول على مجالس البارناسيين ، وتمشى مع آدابهم وذوقهم الفنى . وأخذ يتجول فى القسم الواقع على ضفة السين حيث يجد باعة الكتب التى يعشقها . وفى الثلاثين أخرج للناس ديوان « القصائد المذهبة » فى سنة ١٨٧٣ ثم أتبعه بكتاب « أعراس الكورنتيين » سنة ١٨٦٦

وأولع أناتول بفن القصص فأظهر للعالم قصته الأولى « جوكاست » ووالى اصدار قصصه التى تجلت فيها قوة خياله وروحه الناقدة الساخرة وأودعها ترجمته وروى حادثات نفسه فى أعطاف كتبه . فهو قصاص ماهر ، وخبير فى علم النفس ، ولا يوجد من عهد شاتوبريان رجل كان لكتاباته من التأثير ما كان لتآليف فرانس . فأخرج بلطازار وخطيئة سيلفستر بونار وكتاب صاحى وتاييس ومطهى الملكة بيدوك ، وآراء جيروم كوانياز ، والزنبقة الحمراء ، وزنبيل الصنمصاف ، وحزيرة البطريق ، وثورة الملائكة ، والحياة أيام الزهر ، وحديقة أبيقور ، بير سانت كلير ، دردارة اللعب ، صدفة اللؤلؤ ، رغائب جان سرفيين ، بلتشصر ، المسيو برجريه فى باريز ، بيار نوذيير ، التاريخ الهزلى ، الحجر الأبيض ، قصص جان

تورنبروش ، النساء السبع ، والآلهة عطاش .

وقد نشر مؤلفات بعض الكتاب الفرنسيين كراسين وشاتوبريان ولافونتين وكتب عن جان دارك كتابا نخما .

ويقول مسيو مشيل كورداى أنه عثر على آثار خطية لهذا الكاتب لم تنشر بعد منها كتاب ما وراء الطبيعة وفى ظل الوردة. وقد عثر أيضاً على عناوين كتب وقصص كان فى عزمه تأليفها ولكنها لم تتم بعد وهاك أسماءها : الله . الطبيعة . الحرب . المستقبل . العفة . الدير . الحب والموت . محاورات عن الشيخوخة . علم الفلك .

و يقول كورداى أن أناتول كان عازما على وضع رواية أخرى بعنوان سيكلوب . .

نعود إلى حياة هذا الفيلسوف فقد تولى تحرير القسم الأدبى فى جريدة الطان الفرنسية . وفى ديسمبر سنة ١٨٩٤ وقف موقفا مشهوداً مع زميله « زولا » الأديب والصحافى الفرنسى الكبير فى حادثة « كابتن الفريد دريفس » حيث تحدى زولا القضاء فى مقالته « انى أتهم » وكان أن قبض عليه . ولكن الحق الصراح ما لبث أن ظهر فأطلق سراحه . وظهرت للعالم

قوة أناتول وزولا فى تقدير الحقائق وصراحتهما

وظل مدة يعمل فى مكتبة السنات ثم انتخب عضوا فى الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٩٦ مكان فردِيناند دولسبس ثم أنعم عليه بوسام اللجيون دونور

وزار فرانس انجلترا فى سنة ١٩١٣ ويقال أنها كانت زيارة سياسية وفى سنة ١٩١٤ تطوع بنفسه للخدمة العسكريه .

وفى سنة ١٩٢١ نال أناتول جائزة نوبل فى الآداب ووهبها لمنكوبى المجاعات فى روسيا وبينما هو يستقبل عيد ميلاده الأول بعد الثمانين فى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٤ الساعه ١١ر٢٦ صباحا لفظ النفس الأخير بعد أن ظل يومين فاقداً لرشده . وقد استوفى من العمر قسطا مديدا مجيدا . وخلف مجدا أثيلا .

وكان فى أيامه الأخيرة كثير الحديث يؤم منزله جماعات من الأدباء فيتحدث إليهم بفكاهته وأدبه المستملح . وقد حدث المسيو سيم بائع الكتب ومن أكبر أصدقائه المقربين قال :

إذا ما استيقظ فى الصباح هرع إلى ملابسه فيتناول أقرب رداء إليه فيرتديه وهكذا حتى ينتهى وقد يعثر فى البدء على جاكتته قبل قميصه فيرتديها تحت القميص وفى النهاية رداء من

الصوف فاذا ماأخذك العجب من ذلك أجابك مشدوها من عجبك : « وما وجه العجب . ألم أرتديها جميعا كما هوالواجب ؟ أنني أشعر بالدفء الآن كما تريد أن أرتديها ! »

وفلسفة أناتول مزيج من السخرية والرحمة فهو يحتقر الأنسان . ولكنه يعطف عليه و يتألم لمصائبه وكانت أفكاره كأفكار رينان إلا أنها تهذبت عن ذي بدء . وفي هؤلاء المرتابين الساخرين بالحياة يقول فرانس :

لقد كان ڤولتير ساخطا على العواطف التي تجعل بني الانسان منغصين ، مبشرا بالحياة السعيدة وروح المؤانسه .

وهو الذي كان يعتقد باللاشيء . وهو الطيب القلب الساخر المرتاب بالحياة القاسي على الجهلة والأشرار .

وكذلك رينان الذي عاش دهره ينقي الأديان ويعمل لتوحيدها . كان يعتقد بالله ويدين بالعلم وهو واثق من مستقبل الأنسانية !

أجل. لقد كان مرتابونا مملوءين بقوة خالدة وحمية نارية. قضوا أيامهم في جهاد لفك الاغلال عن أيدي بني الانسان فهم قديسون !

وكان له في غالب الأشياء رأيان مختلفان . رأى لغريزته

وآخر لعقله . فغريزته طالبة اللذات متنسمة ذرى المجد . متعطشة الى مناعم الحياة . والذين يعرفون فرانس يعرفون عنه ميله إلى الجمال والفن . يحب كل شيء جميل من طعام شهى إلى أزهار جميلة ومن حسناء لعوب إلى أثر فني جميل . حتى اشتهر بحبه لعصور الرومان واليونان لما فيها من جمال وفن ! وأنك لترى ذلك جليا فى منزله الذى سماه « مغنى سعيد » حيث ملأه بالآثار الفنية الجميلة . وغرس فى حديقته الأزهار

وأما رأيه الثانى فهو يعبر عن ضميره وما يجول فى خاطره من أن العالم أنسانية معذبة وأن فيها من حادثات المكاره والخسة والوحشية ما يجب أن نعمل لنرجح كفة الخير على الشر .. وهنا ينتصر ذلك الرأى الذى ينغص عليه لذاته ـ على غريزته .

وكان فرانس منكرا للوحى قائلا بدين الطبيعة وقد ساهم فى الاشتراكية والشيوعية . ووافق على مبادئهم بقلمه . ورأى فيهما واسطة للتعديل والموازنة

وأناتول فرانس يشك فى التاريخ ويقول أنه ليس علماً بل هو ناقص . أما المؤرخون فهم رواة أقاصيص زخرافات وأحاديث تتناسب مع عقلية كاتبها . فالمؤرخ لا يستطيع أن

يذكر الحقيقة التاريخية كاملة غير ناقصة بل لابد أن يهذبها أو ينقص منها . فاذاً الحقيقة تمليها على المؤرخ إرادته . فهى مشوبة بالخرافات والخطأ .

وهو يقر ماكس نوردو على قوله أن التاريخ ليس جديرا بالصفة العلميـة . وإن هو إلا مجموعة من الخرافات التى تعلق بذهن المؤرخين ويضيف عليها هؤلاء من بنات أفكارهم ماشاءوا وشاءت أهواؤهم . إذاً فليس من فائدة من دراسة هذا التاريخ أو بالاحرى هذه السـخافات والخرافات المجموعة فى قالب قصصى ينظر إليها البعض كأنها حقائق لا غبار عليهـا فيقبلون عليها بغية الدرس والأعتماد عليها . فاذا جاءت حكومة من الحـكومات وأرادت أن تحكمنا بنوع خاص من أنظمة الحكم وجهت نظرنا إلى جهة خاصة من التاريخ الذى تختاره هى ملائما لها ومبررا لتصرفاتها فيكون ذلك بمثابة خداع من تلك الحـكومة أرادت به تبرير أعمالها .

وهب أننا كشفنا عن كـتابات قديمة أثرية مدونة بها أقاصيص أخرى تاريخيه مخالفة فأن ذلك داع إلى أن ينهار صرح تلك الحقائق الأولى والتى سار على قولها الـكثيرون فقتلوها درسا

وتمحيصاً وذهبوا يملأون العالم بذكراها . ولكن تلك الكتابات الحديثة أضاعت معالم ما كتبه الأولون . وهكذا تتبدل الحقائق وتتغير عقائد المؤرخين تبعاً لذلك - فبعد أن كان المؤرخ يؤكد شيئاً إذا به ينكره اليوم .

فالحقيقة التاريخية يمتنع الوقوف عليها وليس فى وسع المؤرخ أن يحصرها فى كتاباته . ومن شرائط العلم أن يحدثنا عما يكون فى أحوال خاصة : ولكن التاريخ تنقصه الوسائل التى تدرك الحاضر واستذكار صوره . بل أن التاريخ لعاجز عن التنبؤ بحادثة واحدة .

وننتهى من ذلك إلى أن التاريخ هو مجموعة من الرسائل والمقالات ترمى إلى الحض على فضيلة من الفضائل أو اتباع نظام خاص من أنظمة الحكم . وقد يكون مجموعة قصص تشيد بذكرى بطل من الأبطال لا نعلم له من أثر إلا تلك الأقاصيص . فهو محكوم عليه بأن يعيش فى أودية الفوضى الحالكة لا تنيرها أنوار الحق .

هذا ما يراه أناتول وفى كتابه آراء جيروم كوانيار تلمس هذا المنحى من فلسفته حيث يشرح الأستاذ كوانيار ذلك ويذكر قصة يستدل بها وهى :

قال الأستاذ كوانيار : وإنى لذاكر لك ما قصه على الأب بلانشيه من أن (زمير) أمير الفرس الصغير عند ما ولى عرش فارس استدعى علماء مملكته وقال لهم أن مؤدبه قال له إن الملك العادل القليل الخطأ هو من استنار بأعمال الأقدمين . لذا فهو يريد أن يؤلفوا تاريخا عاما لجميع الأمم حتى يطالعه . ولكن حذار أن ينقصوه حرفا . . فانصرفوا طائعين وشرعوا فى التأليف حتى مضت عشرون سنة مثلوا بعدها بين يدى هذا الملك ومعهم اثنا عشر جملا يحمل كل جمل منها خمسمائة مجلد ضخم ! . . وتقدم شيخهم فسجد بين يدى مليكه وقال: يامولاى يتشرف خدمك علماء الدولة بأن يقدموا لجلالتكم التاريخ العام الذى أمرتم به . وهو يقع فى ستة آلاف مجلد . فلم نترك ما أمكننا جمعه من عادات وتقلبات الأمم ومواقعها إلى غير ذلك من أقدم الأزمنة إلى الآن . ومقدمة هذا التاريخ العام تقع فى خمسمائة مجلد ينوء بحملها جمل والتعليقات والشروح أيضا فى فى خمسمائة أخرى يحملها جمل آخر .

فأجاب الملك : « إنى لشاكر لكم ما بذلتموه من مجهود وعناء فى سبيل تنفيذ رغبتى . إلا أنكم ترونني مشغولا بشؤون

الرعية وسياسة المملكة . وقد تقدم سنى فليس لدى من الوقت ما اقرأ فيه هذه الستة آلاف مجلد وأنظر فى شؤون دولتى . فاحفظوا هذه المجلدات فى محل المحفوظات واجتهدوا فى عمل ملخص له كى أستطيع أن أطالعه . »

وانصرف العلماء يكدون و يؤلفون . وبعد عشرين عاما أخرى جاءوا إلى الملك ومعهم ثلاثة جمال تحمل الفا وخمسمائة مجلد . وتقدم شيخهم وكان قد أخذ منه التعب والهرم كل مأخذ فقال بصوته الضعيف الفانى : « يا مولاى لقد اختصرنا التاريخ كما أردت ولم نترك شيئا يستحق العناية » فأجاب الملك : «ياعلماء فارس . لقد هرمت واشتعل الشيب برأسى فكيف تطمعون منى فى مطالعة مجلداتكم الضخمه ؟ هلموا فاختصروه ولا تطيلوا المكث . » فآب العلماء واشتغلوا بالاختصار حتى انصرفت عشرة أعوام أخرى جاءوا بعدها ومعهم فيل يحمل خمسمائة كتاب . وتقدم شيخهم فقال « لقد اختصرناه يامولاى كثيرا »

فقال الملك « أتظنون أن اختصاركم هذا كاف لأن أقرأه وأنا فى آخر أيامى . هلموا اختصروه كثيرا حتى أقرأه قبل الموت » وانصرفت خمسة أعوام أخرى جاء فى نهايتها شيخهم وهو يتوكأ

على عصاه . وقد أنهكه تعب تاليف خمسين عاما فتجعد وجهه وتقوس ظهره حتى صار على أبواب الأبدية . جاء هذا الشيخ الفانى ومعهُ حمار صغير يحمل مؤلفا ضخما ينوء تحت ثقله . فقال له الحارس : « أسرع . فان الملك فى النزع الأخير . »

وحينما رآه الملك قال بأسف « سأقضى قبل أن أعرف تاريخ هذا العالم » فقال شيخ العلماء وكان هو الآخر على أبواب الأبدية :

مولاى سأقول لك تاريخ هذا العالم فى ثلاث كلمات : لقد ولدوا وتألموا وماتوا !! »

وبذلك عرف ملك فارس تاريخ العالم منذ القدم إلى الآن فى اللحظة الأخيرة من حياته !

***

وبعد . فان فلسفة أناتول فرانس موضع درس عميق دقيق فهو يعتمد على الحقائق التى يقررها هو . وإن كان التهكم يغلب على كتاباته والسخرية تبدو فى سطورها . إلا أنها سخرية ممزوجة بالعطف على الناس وطلب العذر لهم لأنهم ضعفاء.

اما الاعتقاد الدينى وتأثيره على الأخلاق فهو يرى أن الأفكار الدينية لا تصلح الأخلاق . ويستشهد على ذلك بتاريخ

الشعوب المسيحية وهى سلسلة مذابح واضطهادات . وأن كهنة العصبة الكاثوليكيه كانوا متورعين ولكنهم كانوا أيضا قساة الأكباد . وكذلك البـاباوات الذين لطخوا صفحات تاريخهم بالدم . . فكيف إذا تطمع فى أن تؤثر الأفكار الدينيـه على أخلاقنا ونحن لسنا أشد ورعا من أبناء الأديره .. وهنـا تثور نفسه فيحمل على البشر بأنهم حيوانات شريرة وأنهم يظلون أشرارا مادامت فيهم عروق تنبض ... ولـكنه لا يلبث أن يعطف عليهم ويعذرهم لأنهم ضعفاء . .

وقد قال يوما « لا تدعون كاهنا مزعجا إلى فراش احتضارى بل ادعو لى امرأة حسناء وأحب أن أيدى جميلة تغمض عيونى عند الرقاد الأخير » .

... وسواء كانت عبقرية أناتول ثائرة غاضبة . أم ساخرة هازئة . فلقد غمرت حياتنا بالضوء وأنارت الظلمات المحيطه بنا وبددت الشكوك والأوهام . وقد قال الأستاذ لكونت رئيس جمعيـة رجال الأدب أن فرانس مات عن مجد كامل وفلسفة عظيمة هي زبدة أفكار حقب عديده ، وخلاصة فنون أعصر مديدة . »

چوكاست

أول ما كتب

الأستاذ فرانس

في فن القصص

فى احدى ليالى يوليو القائظة وقد لبست السماء حلتها الزرقاء وتوسطتها بضع سحب بيضاء

فى حديقة المنزل الخشبي الصغير الذى يملكه المسيو فيلير دى سيساك ، جلس رينيه لونجمار الجراح المساعد فى الجيش يتحدث إلى ابنة صاحب الدار ، وهى هيليين ، فتاة غيداء ، رشيقة القوام ، غضة الأهاب ، رقيقة النفس ، عذبة الحديث

جلست هاته الغادة الصغيرة تنصت لأحاديث الطبيب الشاب . وكان أمامهما على بعد كبير نهر السين العظيم ، الذى ينعطف إلى الشمال بين شاطئين ذوى زرقة باهتة . وفى الفضاء الشاسع كانت تختفى نواقيس الكنائس العالية وسقوف البنايات الشامخة تلك هى پارى . وكانت الأنوار المتساقطة على قبة الانفاليد الذهبية تكون منها أشعة وهاجة تأخذ بالبصر . وإذ رأت الفتاة محدثها يضع بعض الضفادع فى جيوبه صاحت به

— ما هذا يا مسيو لونجمار ، أتضع الضفادع فى جيوبك ؟ ولكن هذا خارج عن الذوق السليم

— فى داخل غرفتى ، يا آنسة ، قد ثبت واحدة على لوح من الخشب . وغطيتها ثم اننى أحركها بملقطى الصغير

— ولكن هذا مفزع ! انها تتألم !

— انها تتألم قليلا فى الشتاء وكثيراً فى الصيف . إذا كان هذا الغطاء محمى من الداخل لوجب أن يكون الألم مضاعفا ولسكنت حركات القلب

— وماذا تبغى من إيذائك الحيوانات المسكينة ؟

— لأضع أساس نظريتى الاستقرائية فى الألم . وسأثبت أن الستوئيسيان[١] لا يفقهون ما يقولون وأن زينو[٢] كان معتوها . ألا تعرفين زينو أيتها الآنسة ؟ لا تعرفينه البتة . . لقد كذب وجود الشعور . ستعرفين من هم الستوئيسيان عند ما أقول لك أنهم بلهاء ثبتت عندهم نظرية خطأ عن الألم وحللوه تحليلا مشوها لا طعم له . ولو أن أحد هؤلاء المعتوهين كان بدلا من هذه الضفدعة تحت ملقطى . إذاً لعرف أنهم كانوا

---

(١) الستوئيسيان *Stoïcien* مذهب غير المكترثين بالدهر

(٢) *Zenon* أحد فلاسفة أثينا وصاحب هذا المذهب (٣٤٢ — ٢٧٠ ق . م)

خيالى العقول حينما كذبوا حدوث الألم . ثم انه من المفيد لهاته الحيوانات أن تتعود الألم .

— أتمزح ؟ وفى أى شيء يمكن أن يفيد الألم ؟

— انه من الضروريات يا آنسة . هذا هو حامى الكائنات . ولأضرب لك مثلا هذا اللهب الذى لو لم يسبب لنا من الأذى الأول إشعارا بالخطر لحرقنا حتى العظام دون ملاحظة .

نظر الشاب إلى محدثته وأضاف :

— وهذا هو موضع الجمال فى الألم . لقد قال ريشيه « أن العبقرية والألم مترادفان . فأن أذكى الناس هم أكثرهم قابلية للالم

— بدهى أنك تتألم أكثر من أى شخص آخر . وسأطلب إليك بالحاح أن تبثنى آلامك . على ما فى طلبى هذا من طيش .

— لقد أفضيت اليك بها يا أنسة . أن زينو كان أبلها . إذا تألمت كثيرا . فاننى سأشكو وأصيح . أما أنت ، فبصفتك ذات شعور حساس وأعصاب رقيقة . فستلجئين إلى آلة موسيقيه ذات نغمات عذبة رنانة لها أثرها فى النفس . تعزفين على أوتارها الثمانية أنفس وأمتع القطع

إن هذا معناه فى الفرنسيه أنى سأصير تعسة . أنك لا تطاق

ومن الصعب أن يعرف الأنسان ما إذا كنت جادا فى أقوالك التى تبـدو من الغرابة بدرجة أن القليل الذى فهمته يجعلنى فى حيرة تامة . ولـكن .. دع هذا المزاح وكن عاقلا مرة واحدة فى حياتك إذا امكنك ، ثم قل لى : أحقا أنك ستبرحنا و ستذهب بعيدا ؟

ـــ أجل يا آنسة . إلى « فال دى جراس » . رحيل ليس له من نهـاية وقد اخترت أن أتجرد من صبغتى الرسمية وألتحق كطالب فى كوشين شين . ولقد قررت ذلك بعد تفكير عميق . . أنك تبتسمين يا آنسه ؟ أتظنيننى جذابا ؟ . ولـكن أصغى إلى . ساهرب أولا من الحمالين وخادمات الفنادق وصـبيانها وتجار الملابس وغير هؤلاء من أعدائى الذين ينغصون على سـعادتى بخدماتهم . فلن أرى قط هاته الابتسامات التى تعلو وجوه خدم المنتديات . هلا لاحظت يا أنسة أن خدم المنتديات يحملون عقلا راجحا ؟ أنها ملاحظة جديرة بالذكر . ولـكن لا ضرورة لأن أذكرلك مايخطر لى من الملاحظات .. لن أرى بعد شارع سان ميشيل .. وسأجد فى شنغاى بعض آثار عظمية تساعدنى على أنهاء دراستى عن تكوين الأسـنان فى الجنس الأصفر

وأخيرا ، أفقد هذه الحياة التي تدب في عروقي . وأذبل كالليمونة في أيامها الأخيرة . تلك الحياة التي تدفعني بشغف لأن ألم بما يحيط بي .. قولي إذا أن كل هذا يجعل رحلتي جميلة .

حملقت الفتاة في الشاب بعينيها الكبيرتين في هدوء . وارتسمت على شفتيها علامات الحزن والقلق .

أن عيناها اللتان تشعان شكا وقلقا ، قد اتخذتا منظر الجمود الممزوج بالحب واستقام أنفها وغار خداها قليلا . . فكأن وجهها ، وقد شحب لونه يقول للسيدات : أن هذه الفتاة قد فقدت حياتها .

وكان فمها الكبير في شيء من النعومة يدل على الرقة والسهولة . عاد لونجمار إلى أقصوصاته المسلية .

— لا يا آنسة . يجب أن أعترف لك أنني في رحيلي عن فرنسا ساهرب من أسكافي . انني اصبحت لا أطيق سماع صوته الخشن .

وهنا سألته مرة أخرى عما إذا كان سيرحل حقيقة . فغابت الابتسامة التي كانت تعلو فمه وقال :

— سأسافر باكر في قطار السابعة والخامسة والخمسين صباحا

وستقلنى الباخرة فى طولون فى السادس والعشرين إلى شاطىء ماجنتنا

وهنا طرق أذنه صوت كرات العاج التى تُكر فوق طاولة البليارد فى المنزل الصغير . وسمع صوتاً يقول بلهجة التأكيد :

— سبعة إلى أربعة عشر !

فألقى الشاب نظرة سريعة على الباب الزجاجى الذى يؤدى إلى اللاعبين . وقطب حاجبيه وقال عبارات الوداع بخشونة وظهرت على وجهه علامات الضيق وأدبر مسرعا وقد خنقته العبرات

تتبعت الفتاة ظله بلواحظها برهة . وهو يسير تحت أشجار الخطمى . ثم نهضت وعدت حتى الحاجز الحديدى . ووضعت منديلها على فمها لتمنع صرخة كانت ستدوى فى هذا السكون لو أنها أطلقت لنفسها العنان . . وبسطت ذراعيها ونادت بصوت مخنوق :

— رينيه !

ولكنها هوت بذراعيها . فقد جاءت متأخرة ولم يسمعها الشاب . وكانت تعبة فلم تستطع الوقوف . واضطجعت الى

عمود من حديد وقد أصبحت فى حالة يرثى لها . دوى صوت اللاعب من القصر :

— هيلين ! أين المادير (١)

هذا هو مسيو فيلير دى سيساك الذى ينادى ابنته . أنتصب بقامته القصيرة أمام اللوحة التى ثبتت عليها أرقام اللاعبين . يقرع كرة البليارد برشاقة . وكانت عيناه تختفيان تحت حاجبين كثيفين . وهيأته تدل على أنه خسر الدور

قال لمضيفه :

— أننى أقدم لك يامسيو هافيلان ماديرى الذى تحضره ابنتى أننى رجل بطريركى قديم . أما أنت فبصفتك من أهل الجزائر فلست أشك فى أنك ذا خبرة بأنواع الأنبذة عامة وماديرى خاصة أرجو أن تذوق هذا

أدار مسيو هافيلان بصره إلى هيلين وتناول بهدوء القدح التى قدمته له لقد كان هذا عملاقا ذا أسنان طويلة واقدام

(١) هو نوع من النبيذ المعتق فى جزيرة ماديرا البورتغالية على المحيط الاطلنطى

ضخمة . مشرب بالحمرة أصلعا . يرتدى حلة أنيقة . يرسل طرف منظاره على منكبيه .

أختفت هيلين بعد أن تفرست فى أبيها بشىء من القلق . وقد اعتذرت عن حضور الغذاء لأنها تشعر بانحراف . وفى غرفة الطعام المزخرفة كأنها مقهى من مقاهى الشوارع . جلس مسيو فلير دى سيسياك يملأ الكوبات ويقطع الطعام وقد صاح : ،، هيه إلى بالسكين لقطع السمك : ،، عندما رأى هذا أمامه وغمد طرف السكين بعنف وعلق فوطته عاليا فى صدريته وأخذ يمتدح أنبذته بلهجة سيرا كيوزيه جافة . أما البستانى الذى كان يخدم منذ سنة فهو يقوم بخدمة المائدة بشكل مضحك وبلاهة لقد كان هذا نوع من القرويين الذين يلقون فى أذن سيده مقداراً كافيا من الأخبار المختلفة دون أن يفهم هذا شيئاً منها .

أكل مسيو هافيلان ما شاءت معدته : وأصبح موردّاً من الشراب وخلد إلى السكون . أما مسيو فيلير دى سيساك فلما كان قد أعلن أنه لن يتكلم فى الأعمال . فقد أخذ يستعرض سيرته الأولى . وكان وكيلا للأعمال وله زبائن من الملاك

والتجار ، وقد اكتسب مالا كثيرا فى وقت قصير ، لأنه ـ وهو ما لم يذكره ـ كان يرى زمنا طويلا يخب فى نواحى شارع « رامبوتو » بحذائه الطويل ذى الكعوب المتأكلة . حينما كان عملاؤه بعض القصابين وكانوا يجتمعون فى مكتبه المظلم فى فناء منزل معتم مهمل .

وعلى بابه لوحة صغيرة كتب عليها اسمه فيلير والكلمات : دى سيساك بين قوسين :

فيلير (دى سيساك) .

وعلى لوحة جديدة ، على باب مسكن آخر ، أبدل القوسين بعلامة أخرى بعد الأسم الأول . هكذا :

فيلير ، دى سيساك

ولما أن نقل إلى مسكن جديد لثالث مرة وضع لوحة جديدة هكذا :

فيلير دى سيساك

أما الآن فلم يعد يرى لوحات على باب وكيل الأعمال الذى يشغل مسكنا فى الطابق الأول من احدى منازل شارع نيف دى بتيت ـ شامب . وقد بنى قصرا فى ميدون . ومسيوفيلير من

سيساك قريبا من سان مامى ـ لاسلفيتا . بمديرية كاتتال . حيث لا يزال أخوه يدير طاحونة إلى يومنا هذا .

ولما علم مسيو فيلير أن جزءا من البوت دى مولان يجب أن يهدم ليخلو محلا للمسرح الفرنسى أسرع يضع الخطط الوافية . ويرسم الخرط اللازمة . وحادث فى ذلك الملاك والتجار العظماء الذين يملكون مبانى فى البوت دى مولان . ولما كان مسيو هافيلان يملك منزلا كبيرا ملاصقا للبوث وعلى مقربة من المسرح فقد ذهب لزيارته فى قصر موريس . وهذا المنزل تملكه عائلة هافيلان منذ قرنين .

وهنا نرى أن نقص عليك شيئاً من تاريخ هذه العائلة :

أسس المالى جون هافيلان مكاتبه فى عام ١٧٨٩ وكانت بينه وبين دوق أورليان صلات وثيقة . وكان يريد ترشيحه خليفة للوى السادس عشر ، إذا ، كما كان يحلم ، ما ظل الفرنسيون على نظام الملكية الدستورية . ولكن لا الحوادث فى سيرها العنيف . ولا الدوق نفسه الذى لم يكن قد وطد العزم على ذلك . حققوا ظن المالى المقدام الذى انضم إلى البلاط وصار يعمل ضد الثورة . واتصل بالملكة بواسطة السيدة الجميلة أليوت . . ولكن . . لما

كانت القذيفة الأولى وسقطت الملكية نهائيا فى ١٠ أغسطس هرب الى انكلترا وأقام على صلة بدوق برنسويك والأمراء . وأراد عامله دافيد أوار الذى كان فى عامه الأول بعد الثمانين ، أن يبقى فى پارى ليرعى مصالحهم المهددة بالضياع . ولما لم يكن قد حصل على تذكرة خاصة من الثوار . حامت حوله الشبهة وقبض عليه ثم سيق إلى الكونسيرج (محكمة الثوار) حيث ظل نسيا منسيا أكثر من أربعة أشهر قدم بعدها . فى الثامن عشر من يوليوعام ١٩٧٤ ، كالعصاة إلى محكمة الثوار التى قضت بموته ونفذ الحكم فى اليوم نفسه على المقصلة التى نصبت على قنطرة ـ ترون ـ التى سميت (رنفرسيه)

ولم يصب مصرف هاڤيلان ما أصاب غيره من السلب والتدمير وذلك بفضل أمانة ونشاط هذا الشيخ أما البوت دى مولان فقد انتهت شهرتها كبيت مالى وقد عرضوها للايجار وعند ما تقرر هدمها ، كانت فى حالة تعسة قتم لونها ، وتلطخت بالسواد وترى النوافذ التى على الواجهة وقد علتها الأصداف على طراز لوى الخامس عشر ونصب تمثال هزلى يرتدى القبعه ، وقد تخلع على القوس وامتد إلى المدخل وفى الزوايا نقوش ولوحات

زخرفية جزءها الأول ملون بالازرق والآخر بالأصفر وعلقت لوحات إلى يمين الباب وشماله وتحت القوس تحوى أسماء بعض الناسخين والعملاء . وفى الداخل ، أقيم على الدرج الحجرى موقد فاخر من الحديد المطروق ، وقد علته الأتربة والبصاق والقاذورات . وتتصاعد منه رائحة قلويه نتنه . وتدوى من الداخل ، على أبواب الطبقات ، أصوات الأطفال . وتلمح من الأبواب الداخلية النسوة فى مآزرهن والرجال فى قمصانهم . أرسلت بهم البطالة إلى هذا المكان القفر يتسكعون فيه .

هذا هو منزل هافيلان فى عصره الأخير .

ولما كان مسيو فيلير مكلفا بالمحافظة على مصلحة المالك . فقد زارها وعاين ثلاثين متراوحانوتين مستقلين واثنين وثلاثين منافع مختلفة ، بما فيها الأسطبل حيث يودعه أحد التجار عربته . والسطح الذى اتخذه أحد العمال محلا يخيط فيه على ما كينته : وقد عملت بكل هذا مذكرة لتنير الطريق أمام اللجنة المشكلة من مجلس بلدى المدينة لتقدير العقار . وفى حالة ما إذا اضطروا للالتجاء إلى المحاكم ، تعهد مسيو فيلير بأن يقدم المحامى والنائب ويقوم بكل ما تعوزه القضية . وقد أدب مسيو فيلير مأدبة

للمسيو هافيلان أولا فى بارى ثم فى ميدون . وهو دائما يدعو عملاءه إلى مائدته حيث يبدى لهم أبلغ ضروب الحفاوة ،وأمام الزجاجات يعرف كيف يساير الرجال . تلك الزجاجات التى تعرف كيف تفتح مغاليق قلوبهم وكيف تجذبهم إليه . وهو نفسه يعبدها ويرى فيها الحياة والمثل الأعلى . وقبل أن يبتسم له الدهر كان يجلس على مائدته التى غطاها بطبقة من قطرات الشمع يكرع النبيذ الأبيض ويأكل المارون المشوى . أما الآن فانه يستقبل زائريه فى منزله الأنيق .

انتهى مسيو فيلير ومسيو هافيلان من شرب القهوة وقد انعكست أشعة الشمس الحمراء ، شمس المغيب ، على غرفة الطعام فأكسبتها لونا ذهبيا ، وكان رجل الأعمال المنتفخ الخدين يحدج فى زائره قائلا :

دعنى أذوق هذا الكونياك يا عزيزى الجزائرى وقد بدى له لقب الجزائرى أنيقا فتبعها بكلمة :

„ البيون ،، يقصد إنجلترا ثم اعتذر لأنه لا يزال رومانتيكى أحتسى مسيو هافيلان الكونياك وطلب كأسا من النبيذ قائلا :

أرجو ألا يطول الانحراف الذى ألم بالآنسه فيلير .

نهض مسيو هافيلان فى غلطة أنجليزية وهو يتباطأ لألم لحق بركبتيه من جراء الروماتيزم . وأرسل معطفه الأصفر على ذراعيه . وبينما كان يجتاز الحديقة قال لمضيفه :

— لى الشرف أن أطلب إليك يد أبنتك الآنسة فيلير

وقد كاد الرجل الصغير يندفع فى طيش فيجيبه بالقبول ولكن الانكليزى عاجله بأن وضع فى يده ورقة قائلا :

— ستجد فيها التقدير الحقيقى لثروتى . أرجو أن يصلنى ردك ضمن خطاب مسجل . آه تريد أن تصحبنى مودعا .. لا

ثم سار فى خطا متثاقلة إلى المحطة .

أخذ مسيو فيلير يفكر حتى أنه دار حول الكهف الصناعى اثنتى عشرة مرة مشدوها . وقد أضاء وجهه القمر فأظهر خديه المنتفخين وبدا وجهه كأنه وجه تمثال مضحك . كان يحدث نفسه :

— ماذا ؟ أن هذا الأنسان يدخل منزلى كالآخرين . ولقد عاملت مائتين فى عام واحد ـ أنه لم يقل شيئا وقد رأى ابنتى ستة مرات ولم يفتح فمه إلا ليطلب يدها منى . آه هذا ! ولكن .. هل تمثل هيلين هاته المهزلة ذات الشخصين ؟ ولكن .. لا ! لست

بالأب الهزلى . لست بالكاساندر :(١) أننى على اتصال بمايحدث عندى . وعلى يقين من أن الفتــاة التى لم تخاطبه أربع مرات سترفض . عض على بنانه ولمعت عيناه وهو يقدر العقبة التى ستعترضه . ثم دخل القصر فمر من أمام غرفة الطعام وقرأ الورقة التى أعطاها له مسيو هافيلان . ثم صعد إلى غرفة أبنته فوضع سيكاره على السياج الذى يحيط بالموقد وجلس كالطبيب على رأس المضجع النائمة فيه هيلين .

ـــ آه حسنا . . كيف الحال ياحبيبتى ؟

ولما لم يتلق جوابا أضاف :

ـــ لقد سأل مسيو هافيلان عنك الليلة بلهجة ودية .

وتنفس مسيو فيلير عن أكلة ثقيلة وقال :

ـــ وما رأيك فى هذا الرجل ؟

ولكنه لم يتلق جوابا أيضا . ورأى على ضوء الشمعة التى تشتعل فى الموقد عيناها الجاحظتان . ووجهها المقطب .

وقد فطن إلى أنها عرفت مقصده فلم ير بدا من مواجهتها .!

---

(١) هذا الأسم يطلق رمزا للأب الذى يخدعه اولاده ويسخرمنه الناس وهو علم على شخصية من الشخصيات الأولى الممتازة التى وردت فى الروايات القديمة

— أن مسيو هافيلان يريدك زوجة .

فأجابت

— لا أريد زواجا . أنني سعيدة معك

فوضع يديه على ركبتيه وتأوه من حنجرة لحمتها وسداها من المسكر ثم ما لبث أن اتخذ هيأة رجل الأعمال وقال :

— فيليت . أنك ترفضين ما أجبته اليه ؟

— آه حسنا . ماذا أجبته ؟

— لم أقل شيئا يغضبك يا أبتى . أنني أريد أن أدعك طليقة ولا أستعمل الحق فى أخضاعك لأرادتى . أنك تعرفين حق المعرفة أنني لست بقاس .

فتمتمت :

— لا أنك أب صالح . ولكنني لا أريد أن أتزوج . أنك لن ترغمني على ذلك .

فعاد للكلام بلطف :

— أنني أكرر ماقلته أنك مطلقة الحرية . ولكننا نستطيع أن نتناقش . أنني والدك الذى يضمر لك الحب والأخلاص ويمكنني الآن أن أصارحك أشياء لا أشك أنك ستقدرينها .

بما أنك فتاة كبيرة كاملة . لنتناقش كصاحبين : نحن نحيا حياة لا بأس بها . ولـكننا لا نمتلك مايطلقون عليه الثروة . أنني ابن أعمالي ولقد أصبحت تعبا . تعباجدا ! ولربما تنتهى مرحلة حياتى قبل أن أشاهد قرانك . أنك فى الثانية والعشرون . واليد التى تمتد إليك اليوم ليست بمستحقة رفضك . أن هافيلان ليس شابا - ها أنت ترين يا بنية أننى عادل - ولـكنه رجل عصرى . يتمتع بشيء كثير من اللطف . ثم أنه على ثروة عظيمة . - ولما نطق بالكلمات الأخيرة ضرب جيبه الذى وضع فيه الورقة التى أعطاها له الأنكليزى واستمر :

— أن شيطان هافيلان يقف على قمة ثروة هائلة . ضياع ، قصور ، نفائس ، ثرة عظيمة ، كل هذا ! أنه لعظيم !

فاظهرت عدم استحسانها وهزت منكبيها . عاد الوالد الى حديثه :

— لا تظنى يا إبنتى ، أننى أريد أن أزوجك مايسمى زواج المال . كلا ! أننى أحبك وأحب سعادتك .

وهو يحبها حقا . وقد انحدر صوته عند ذكر المحبه . قال :

— لقد أراد الله ألا أبغى فى هذا العالم إلا سعادتك . أننى

أعرف أن هذه مسألة الشعور . ولما تزوجت بوالدتك لم أنظر إلى الثروة . أتريدين أن أصارحك القول ؟ أنني رجل خيالى ، آه ! أنني شخص رومانتيكى . هل تعلمين ماذا كنت أفعل لو أنني لم ألق نجاحا فى عملى ؟ أنني لأعتزل بعيدا فى الخلاء لأنظم الأشعار . ولكن ماذا تبغى الآن ؟ لقد ضحيت نفسى الخيالية وروحى للأعمال . والآن قد أصبحت شيخا فانيا ! آه يا آنسة ! أن الحياة ليست كلها موردة فيجب أن تتعلمى خلق التضحية . أنني أريدك أن تسعدى يابنيتى . أريد أن أمنع عنك شبح البؤس والفاقة . كفى أن والدتك التعيسة قدمت نفسها قربانا على مذبح الواجب . ماتت ضحية الواجب ، أتسمعين ؟

مر بيده على عينيه . لقد ماتت زوجته حقا أثر مرض صدرى وسط عائلتها فى نيورت حيث أرسلها هو لقضاء بعض الأعمال . أخذ رأس أبنته بين يديه وجعل يمطرها بقبلاته ويصعد الزفرات الحارة :

— أصغى إلى أنني أعرفك جيداً يا ليلى يجب أن تتوفر لك السعادة والعظمة . أن هذه غلطتى لقد كنت طماعاً لم أجد عندى أعظم وأجمل من هذا لأقدمه لك . لقد ربيتك للثروة أنك لم

تتعلى لا الخدمه ولا الحساب فاذا لم تصيرى غنية تكونين أتعس نساء العالم وسيقولون أننى مصدر تعاستك أية مسئولية يتحملها أبيك المسكين ! أن هذا يقضى علىّ ! ولكن .. لقد آن الثراء .. هاهو ذا يقرع بابك . ماذا ؟ أيتها الصغيرة . فلندعه يدخل فكرى جيداً ؟ أننى أحبك . أعجب بك وأقدر ما يلائمك ! إن الحب لن يخدعنى . دعينى أفعل .

سألت هيلين بفتور عما إذا كان مسيو هافيلان يقيم باستمرار فى پارى . فصاح والدها الذى لا يعرف عن ذلك شيئاً ! أجل . بالتأكيد !

وأضاف بان أخلاق صهره المقبل حميدة . وشعوره راق . ثم طرق الباب الأخير فأخذ يتحدث عن القصور والعربات والحلى .

أخذت هيلين فى استعراض خواطرها . لقد مضى رينيه لسفر طويل الأمد دون أن يتفوه بكلمة عن حبه . أوعن أمله . لو كان قال أنه سيعود ! أو ترك تذكاراً ! ولكن شيئا من ذلك لم يكن . وهذا يعنى أنه لا يحبها . أجل انه يحب كتبه وأبحاثه وضفادعه . لقد كانا يتحدثان ولكن محض نظريات . هذا كل

ما هنا لك ولكن ما يقوله لها هو عين ما يقوله لغيرها ! فهل يحبها حبا صامتا خفيا كما ظنت ذلك مرارا ؟ إذا فستنتقم من هربه . ثم ان والدها محق فيما قاله من أنها لم تخلق إلا للغنى والأبهة . . ولكنها تعود فتفكر كيف ستقاوم ؟ وأى تعب ينالها من هذا النضال .

لقد كانت هيلين من النفوس التى تلين للفشل اذا ما فاجأها فى المرحلة الأولى .

ها قد عرض لها أخيرا الحب الجديد . . حب الأجنبي الذى طاف العالم خمس وعشرين عاما ، وهى تعلم تماما كم هو متين هذا الحب ، وهو الذى أوحى لهذا الثرى الذى ، بعد ثلاثة أشهر كلها زيارات يطلب يدها فى سكون مادا لها لقبه وثروته .

هذا الرجل الجديد ، ألا يمكن أن تحبه ؟

رفعت رأسها وتمتمت

— سنرى .

٢

من الحق أن هيلين فيلير ولدت ونشأت لتكون ثرية . وهى لا تزال تذكر للطفولة تلك الجوارب المثقوبة ، وما كان يلحق قدميها من البرد . وقطع اللحم النتنة التى كانت تبغضها . والثقوب المنتشرة تحت الابواب . ثم وجه والدتها الطويل فى ليالى الشتاء ، أنها تذكر أمها فى أطوارها المختلفة حينما كانت تزأر وهى حانقة ثم وهى حزينة تتعذب .

خرجا ذات مرة للتنزه . أين ذلك ؟ ومتى حدث ؟ هذا ما لا تذكره هيلين . انمايعلق بذهنها أنها كانت جد حديثة السن . وفى المساء أمرتها والدتها أن تنام ثم خلعت قميصها وغسلته فى الحوض . ولقد طربت حينذاك لمنظر والدتها وهى تتدثر بشالها وتعجن أيديها بالصابون . ولكنها حزنت كثيرا حين اكتشفت أخيرا أن والدتها لم تفعل ذلك إلا لفقرها المدقع .

ولقد كانت ، منذ حداثتها ، مخلوقة لطيفة المشاعر تحس وتتألم ، وكم أعطت لرفيقاتها الفقيرات قطع الحلوى وملابس قديمة لعرائسهن اللاتى يلعبن بها . وكانت تقتنى عصفورا

أودعته قفصا تملأه على صاحبه بقطع السكر والحلوى . هذا العصفور الذى بقدر ما أفرحها . سبب لها هموما وآلاما لا تطاق . لقد فعلت كما جاء فى دواوين الشعر : «لقد شيد برا كبسو مقبرة لصرصوره الذى عرف منه بان الانسان مصيره الفناء» وهكذاحزنت هيلين على عصفورها . زمنا طويلا . أما والدتها. فلما كانت ترزح تحت أعباء البؤس ، والضيق ، وخلو أيدى زوجها من المال ، فقد خلت من هته العواطف ، وهذا الهدوء والاطمئنان إلى الحياة . بل لقد خلت من كل عاطفة تحملها الأم لأبنائها الصغار . وتجردت من المجاملات والمداعبات التى تقابل بها الأمهات هته النفوس الصغيرة المظلمة التى خلفوها إلى العالم . وهيلين فى طفولتها جد قديرة على تمييز شتى المعاملات الطيب منها والردىء . ذات يوم صاحت أمها فجاة : ـ أن هذه الفتاة ستميتنى . اننى لا أعرف ما الذى جنيتـه فى حق الأله حتى يرزقنى بهذا الوحش المفترس

ثم أزبدت ، وانفعلت فأخذت تصـعد الزفرات الحارة وتدفع بالابواب ، وأمام هته الثورة ، انسلت هيلين المسكينة إلى مضجعها فى هدوء . فنامت ودموعها تسح على خديها . وفى

الصباح أفاقت على صوت القبلات ، والمداعبات ، والاغنية التى نظمتها لها والدتها .

أما والدها فهيلين ترى فيه الظرف والعظمة . وكم أعجبت بمنكبيه العريضين وصديريته البيضاء فهو أله بالنسبة لأبنته ، ولكنه على طريقة الألهة ، قليل الظهور ، يغيب يومه و يعود متأخرا

كان يصحبها أحيانا فى عربة إلى الحديقة ، و إلى المقاهى حيث يقدم لها حلو الشراب . وكانت تمد طرف لسانها فى كوبة أبيها وينبسط وجهها عند ماتتذوق مرارة الشراب الأخضر وكان هذا من دواعى سرورها . ولكن لم يكن هذا السرور ليدوم طويلا فان الأله يعود إلى الاختفاء . فتجلس إلى جانب والدتها تفكر فى والدها المحبوب . وهى تستعرض صديريته البيضاء التى تخطف بالبصر وكانت تميل إلى الكسل والبطالة . ولم تكن ما دام فيلير لتلتفت لبطالة فتاتها وخمولها . وقد طبعت الاخيرة على حب الأناقة والابهة وكان ذوقها فى الملبس وترتيب المائدة محل أعجاب مسيو فيلير .

وفى السابعة من عمرها وضعها والدها تحت أشراف سيدات كالفير حيث التحقت بنزلهم فى أوتوى . وقد ارتاحت كثيرا

لهته الملابس البيضاء ، ووجوه الأمهات الناصعة البياض ، والسكون الذى يشمل المنزل ، وطمأنينة الحياة العادية .

وفى يوم قيل لها أن والدتها التى سافرت من مدة لن تعود قط . وقد أفزعتها هاته العبارة فانفعلت واجهشت بالبكاء . وقد ألبسوها رداء أسود واخرجوها إلى الحديقة . وقد بدت لها الحديقة قطر واسع ملىء بالأسرار ، والكائنات الحية ، ومغنى جميل . ومهد المعجزات .

وكان والدها يزورها كل أسبوع حاملا لها الحلوى . وهو يمتلىء حبا واعجابا بها . وقد أنهكه التعب ومل العمل طوال الأسبوع . فهو يرى كل يوم خميس ، وقد نظم شعره ، وحلق ذقنه ، ورتب ثيابه ، فى مطبخ سيدات كالفير . وقد بدى منظره سعيدا وخديه الأبيضان ذو أتساق لطيف . فهو محل تقدير وأعجاب الأم سانت جنفيف مديرة نزل أوتوى . كذا كانت تحلم به اثنتان من كبار سيدات المنزل أثناء سباتهن .

أما هيلين فهى تجل والدها وتعجب به أيما أعجاب . وفى الحق كان مسيو فيلير جديرا بالبطولة وفى يوم خلت فيه جيوبه من النقود . استعار من صديق له مجموعة أشعار الفريد دى

موسيه ، وقد رآها على الطاولة ، قائلا : « أنني أريد أن أقرأها لمائة مرة » ثم ذهب يبيعها فى الشوارع ليشترى قفازا ، جلس يفك أزراره دون عناية فى اليوم التالى أمام الأخت الراهبة المتكلفة بالأتصال بالأهالى . أما الحلوى التى يحملها إلى إبنته ولصديقاته فى كل زيارة فهى من محل ممتاز ، موضوعة فى علب فاخرة تدل على ذوق سليم . وقد أعجبت الأم سانت جنڤييف واستشارته يوما فى مشكل طارىء . وقد بذل فى سبيل ذلك وقته ومهارته وذكائه . وكم اهتز زهوا واعجابا وترنح خيلاء وهو يقلب ملفات القضايا أمام الأم المحترمه . ويبل أصبعه من طرف لسانه فى شىء من الوقار والتيه . ويندفع يشرح للأم ما شكل عليها فهمه يبحث ويحلل ويدافع ويناقش . كل هذا والسيدة الجميلة ذات الرداء الأبيض تنصت فى امتثال ، وقد ارتخت عيناها ، وتدلت أكمام ثيابها على يديها . لا تتكلم إلا بصوت منخفض . الأمر الذى لم يصادفه مسيو فيلير طول حياته بين زبائنه كثيرى الضوضاء والجلبة .

وكانت الام سانت جنڤييف تتخلق بخلق العصور الماضية فقد أبى ظرفها أن تشك فيما إذا كان مسيو فيلير يبغى نقودا .

لقد قدم إلى هته الجمعية الدينيه مبالغ كثيرة . وكم داخله السرور حينما سمع يوم أحد الوعظ المسائى فى أحدى الكنائس الصغيرة. ثم اكتشف ابنته مكبة على كتاب الكنيسة بين حفيدة مستشار قضائى وابنة عم أمير ، وبعد أن أنعم النظر إلى شعرها الجميل ومنكبيها اللطيفين ، لمع زجاج نظارته ، وتمخط كما يفعل فى الممثل بعد المواقف العنيفة

لقد كلفته أعمال هته الجمعية بعض المال ولكنها ربطته بعلاقات مفيدة . وقد حدث نفسه :

— لقد أكتسبت شهرة كبيرة وذاع صيتى .

وقد اكتسبت صديريته لونا جديدا . وزهت على صدره آثار تلك المادة التى يلصقها بها كلما عن له أن يتمخط !

نمت هيلين وازدادت حسنا وبهاء . واكتسب شعرها لونا ذهبيا بعد أن ظل ردحا من الزمن يعج بلون باهت كهذا الذى كان لأمها . فاصبحت فائقة الجمال ، غضة الأهاب ، رائعة البهاء تفيض نفسها الشاعرية عطفا وحنانا وقداتخذت لها صديقة تدعى سيسيل تزورها فى الأيام التى يسمح لها بالخروج فيها وهذه الصديقة هى ابنة لرجل يشتغل فى القطع ، وكانت هذه

المخلوقة الصغيرة الثرية فى السادسة عشر . تبدو عليها مظاهر الطفولة والوجاهة ، ووداعة الأخلاق . ولكنها تحمل نفس سيدة فى الثلاثين من عمرها الشىء الذى جعل لها مركزا ممتازا بين صديقاتها .

ولقد اقتادتها يوما عند والدها ، فى ياسى ، فى غرفة أنيقة ملأى بالطنافس حيث قدمت لها الحلوى . ولقد بهرت عيناها هته الطنافس . ولكنها ما كادت تخرج حتى بدى لها كل ما رأته تافها لا قيمة له .

وقد استسلمت لأحلام لذيذة . وأمانى طيبة . وأصابها مرض معدى أقعدها عن النهوض . فهى غارقة فى بحر زاخر بالأحلام تتشهى فى أن يكون لها غرفة زرقاء تقرأ فيها القصص وهى مضطجعة فى مقعد طويل .

وفى ذات مساء سمع صوت ينادى : النار ! فذعر كل من فى المنزل وخرجوا مهرولين البعض فى ملابسهم الداخلية ، والآخرون مندثرين بالأغطية ، الصغار منهم يتبعون الكبار وهم يتعثرون فى قمصانهم الليلية الطويلة . وسرعان ما تبين كذب الخبر وأن النار لم تشتعل إلا فى رأس هته المخبولة صاحبة هذه

الاكذوبة . أما الأم سانت جنيفيف فقد وبخت هذا الجمع الحاشد بقدر ما أثنت على هيلين التى لم تترك مضجعها . والواقع أنها لم تكن لتغادر مضجعها لأجل مثل هذه الأخبار . بل كانت تحلم فى هذا الوقت ، فى الحلى ، والملابس ، والخيول ، والنزهة والقوارب ، ثم تعود فتسح الدموع لذكرى والدها .

وقد خرجت من هذا المنزل وهى تحسن إداء التحية فى غرفة الاستقبال . وتجيد العزف على البيانو . وقد صار منزل والدها لائقا بها . وأصبحت تملك غرفة زرقاء . وقد لاقت من والدها عطفا وحنانا . وكان يصحبها إلى الملاهى حيث تتناول عشاءها بعد انتهاء التمثيل . وقد عرفت أن هذا الأب الظريف هو غير ذلك الذى كانت تراه فى نزل سيدات كالفير حيث تعلمت آداب المعاشرة والحديث والذوق السليم

وقد جذب جمالها جمعا من الناس كانوا يجتمعون عند والدها ولكن أحدا لم يفكر فى طلب يدها بل أنها لم ترى بينهم من هو كفو لأن يكون بعلا لها إلى أن ظهر أخيرا شاب حاز أعجابها . هذا الشاب هو رينيه لونجمار الجراح الملحق بالجيش . الذى أوفده والده الوسيط التجارى الشيخ فى أردين لقضاء بعض

الأعمال عند مسيو فيلير دي سيساك وقد قطن شارع نيف ـ دى بتيت شامب

وبالرغم من امتلاء جسمه القوى ، ووجهه الممتلىء صحة ، فانه لم يك جميلا . وكان حديثه على شىء من الخشونة والابهام . ولكن هيلين أحبت رؤياه وسرت لحديثه . وكان يتحدث إليها عن الدين والاخلاق ملقيا إليها بنظريات غريبة ، كانت تسر منها ولكنها لا تفهم منها شيئا !

وقد قال لها يوما :

ــ أن الانسان جاء من سلالة القردة !

ولما شدهت واحتجت أخذ يؤيد نظريته ببراهين كثيرة معقدة ومضحكة . وقد اصطحب لونجمار بعض اصدقائه . وتكونت هيأة من الشبان العلماء عند هذا الطبيب القلب مسيو فيلير الذى لم يعره أى اهتمام

وقد جاهر الجراح ببعض الآراء منها :

أنما الفضيلة عجز .

البسالة والقداسة هما نتيجة احتقان فى المخ . الفالج العام ينشأ وحده الرجال العظام . الآلهة هم صفات .

وقد صاحت به :

ـــ حذار !

ولـكنها لم تحجم عن سماع حديثه والأعجاب بهته الحرية والصراحة يدفعها إلى ذلك عامل خفى . حتى أنه فى المساء بين قدح الشاى وزجاجة الـكيرش كان يلقى عليها دروسه العظيمه وأحاديثه عن الطبيعة وغرائبها وأهوالها .

ولـكن كان يرتفع من الردهه المجاورة أصوات أخرى عن القضايا التجارية وأعمال المناقصات والمزايدات !

وهنا يبدو لها شبح عظيم يتقدم فى هدوء تعلو وجهه حمرة قانية . تبدو عليه علامات النبل والعظمة . هذا هو مسيو هاڤيلان وهيلين تقدره وتعلم أنه سليل بيت عظيم ، وربيب المجد والعظمة وتلمح منه آيات الحب ولو أنه لم يفاتحها بل لم يخاطبها طيلة حياته

أما لونجمار فهو فى كل محادثاته ساذج يحترمها ويعجب بها سرا . ويحاول أن يدخل السرور إلى قلبها بأحاديثه فهو دائما يحافظ على الظهور أمامها بمظهر الرشاقة فى الحديث والأستهواء بنكاته .. كان يشعر فى أغلب الأحيان بالثبات يحكم عاطفته لاعتيـاده على النظام العسكرى ولأنه يعرف كيف يستعمل

شجاعته الأدبية . أنه يحب من يحادثها ويحس قلبه يخفق ولكنه لا يتحرك بل كان أحيانا ينحبس لسانه فى حلقه ..

وهو لا يمتلك إلا مرتبه وهو يعلم أن الآنسه فيلير لم تكن ذات ثراء وافر ..

ثم هى تعطف عليه وتذكره حتى هذا اليوم الذى جاء مودعا فيه . وكم أثر فى نفسها ذلك الفراق . وكم أقض عليها مضجعها ذكراه .

٣

كان منزل البوت دى مولان قد سقط بناؤه وكسر المعول الوجه الرمزى الذى لون أحدى خديه بلون أزرق والآخر بلون أصفر إلى قطع صغيرة . واختفت الغرفة الصغيرة التى قبض فيها على الشيخ دافيد أوار الذى قدم إلى محكمة الثوار ثم إلى المقصلة . وبعد مدة وجيزة كانت سحب التراب التى تهب الى الشوارع المجاورة تحمل معها آثار هته العمارة القديمة فتتصاعد أتربتها ذى الرائحة الخانقة الى حناجر الرجال والجياد التى تمر من هنالك . والآن لايعرف سكانه ، وبينهم صباغ وصانع مفاتيح ، مكانه الحقيقى .

زادت أملاك مسيو فيلير دى سيساك فى ميدون ، وقد زاد من حجم الأعمدة الحديدية التى كانت تكون الباب العمومى للقصر المجاور وضم إليه مساحات الفضاء المجاور . حيث بنى عليها قصرا صغيرا ذو شرفات عالية . فى أسفلها فتحات عليها نقوش بديعة . وأطلق على الجميع ـ مغنى سيساك ـ وفى ذات يوم علقت على الباب الكبير لوحة كتب عليها أن المنزل والقصر ومايتبعهما للبيع أو للايجار .

ومرت الفصول الأربعة واللوحة ترقص وسط الرياح وأثر عليها أشعة الشمس وهطول المطر . فاصفر لونها وتكسر شكلها .

أخيرا ، فى أيام الربيع ، وقد انتشر سكون رهيب على ميدون ، دخل القصر الصغير رجال متقبعون بقبعات من الجلد يسيرون بخطى ثقيلة . قد ناءت أكتافهم تحت البنادق ، هؤلاء هم جند الألمان . فاشعلوا النار فى الموقد الكبير والأرضية المدهونة بالزيت . وقد تشقق السقف وتصدع البنيان .

وجاء الشتاء العظيم . وغزيت فرنسا ، ثم حوصرت پارى وفى هذه المحنه العظيمة ، محنة شعب بأسره ، أفل حظ مسيو فيلير وانتهت ثروته إلى الفناء . ولماأن تعطلت حركة العمل ، وتعطلت محكمة السين فى عهد وزارة شيڤاندى ، وجاء ذلك ضربة قاضية على مكتب الأعمال الواقع فى شارع نيف ـ دى ـ پتيت شامپ وذهب مسيو فيلير الذى تجهم له الدهر مرة ثانية يحمل ردنجوناته القذرة وعويناته ذات الأصداف . ولم يعد يصبغ ذقنه ، ذهب إلى محلات المقامرة حيث غامر بنقوده الباقية فخسرها .

ومنذ أن غادرته أبنته وهو يتلقى فتيات جميلات ولا تلتقى به فى ممثل الفولى برجير إلاوتراه متأبطا ذراع امرأة . وفى أثناء

حصار بارى أسس شركة للتامين على الحياة «عنفاء[1] الحرسى الاهلى» ولكن أحدا لم يعرها أى اهتمام .

***

تزوجت هيلين وقامت بسياحة استغرقت أربعة أعوام . فكانت تلك الحياة بنعيمها داعية إلى سرورها . ثم أن عظمتها ، جمالها ، أبهتها ، وملابسها الفاخرة ، كل ذلك كان داعيا للاعجاب بها أينما حلت ، فى الفنادق والملاهى حيث كانت ترتسم على وجهها وفى حركاتها مظاهر الأرستوقراطية . وقد خفق قلبها بحب زوجها ، ولكنه كان مملا . فهو يرى ويسمع ويتكلم بمظهر واحد . لم يكن ليميز بين الاشياء الكبيره والصغيرة . فكل شىء لابد من تقديره . وقد ظل مرة يشاجرها زهاء ساعتين من أجل ثلاث فرنكات لم يعرف أين صرفتهم .. فهو يصرف الكثير ويدقق على القليل . والكرم عنده يتخذ مظهر البخل . ولقد أباح لها أن تتصرف فى أيراده وتبدد ما تشاء على شريطة أن تسدد كل مايطلب منها وتؤدى كل الواجبات . فتصرف ثلث

(١) اسم لطائر وهمى فريد فى نوعه . عاش قرونا عدة ومات على الموقد ثم بعث من نبره

حياتها فى حساب السنتيمات مع خدم الفنادق وكانت له خطة لا يضيع معها نصف سنتيم هباءً .

ومن جهة أخرى فهو يدير حركة قياس الأبعاد .. إرتفاع ميزآن الحرارة .. ودرجات الميزان الجوى . أتجاه الرياح .. والسحب حتى أنه كعب مساحة فضاء فرچينيا فى ناپل .

وهو يحب النظام ولكنه يحبس نفسه عن الألم عند مايرى صحيفة تظل مفتوحة وملقاة على مقعد طويل . وقد أغضب هيلين لأنه رآها أكثر من عشرين مرة فى اليوم ممسكة بكتابها أو بأدوات التطريز . وقد تذكرت هيلين والدها الذى كثيرا مانسى سكائرة على أذرعة مقاعد السيدات ! ولكن لم يكن هذا شيئا هاما . أنما أصدق الألم الذى ترزح تحت عبأه هو حياتها مع رجل دائب التفكير . وهو لا يعرف كيف يعبر عن شعوره ولا كيف يدخل السرور إلى نفس أخرى . فمنذ أن تزوجها ولم يفتح فه بغير الأوامر . وأنك لتقدر ألم زوجة شابة عند ما يكون زوجها غير قادر على إدخال السرور إلى قلبها . حقا أن قلبه يحمل لها شيئا وافراً من الحب والعطف ولكن حبه شبيه بقطرة من قطرات المطر الرفيع . لا يدركها بصر ولا تسمعها

أذن . لاتريد أن تنقطع ، تنفذ إلى الداخل وتسبب بردا خفيفا وبذا تشعر بوجودها

ويلحق بالسيد هافيلان خادم قد طاف معه العالم مرتين . وهما لايفترقان البته عرف السيد خادمه الفرنسى جرول شابا فى أفرانش ولم يكن هذا الأخير جميلا ، ذا شعر أحمر وعينان زرقاوان تشعان شكا . يعرج فى سيره ولكنه كان نظيفا يؤدى عمله بهمة نادرة . تزوج من امرأة فى خدمة المسيو هافيلان . وقد تركوها فى پارى حيث تقوم بحراسة المنزل المبنى حديثا فى شارع «لاتور - موبورج»

ويشتغل مسيو هافيلان بالكيماء وساعده الأيمن جرول . وكما أنه يتعاطى الأدوية يوميا . فأن جرول يدير صيدليته المتنقلة كان هذا الجرول حاد الذكاء يحضر الأدوية بنظام ثم هو يصلح كل مايتلف فى المنزل . ولقد أبدى مهارة فى عمل المفاتيح . له يدان مخيفتان ذوى شكل غريب . وسبابتان مفزعتان . وهذان اليدان تقومان بأدق الأعمال وألطفها . ومع أنه ذو مهارة فائقة فى الفنون الآلية فأنه لايجيد الكتابة بشكل يقرأ . وقد اخترع حروف هجاء خاصة لايعرفها سواه . ولا يمكن التوصل بأى

حال إلى تمييز حرف أو عدد فى الورقه التى كتب عليها حساباته بخط هو غاية الرداءة .

وكانت كتاباته الرمزيه المخيفة ، ومخالبه البشعة ، ومشيته العرجاء ، ورائحة الأدوية التى تهب من جسمه الذى أبى الأكسيد إلا أن يترك عليه آثاره ، كل هذا دعى لأن تخافه الخدم والطهاة ، الذين سموه كلوشون - كما يخافون الشيطان ، وقد حكموا عليه بأنه قادر على عمل كل شىء ولكن جرول كان بعيدا عن أن يرتكب أى خطأ .

أما هيلين ، التى كان يمجها فى الباطن فقد خدعتها مظاهره ولكنها سريعا ما كشفت أنه لايترك فرصة دون الايقاع بينها وبين زوجها . وقد أحاطها بشىء من المظاهر الخداعة . فكان خادمها الأمين الذى لايبرحها لحظة واحدة

ولم يكن سوء ظن سيدته داعيا لخوفه فهو يعلم أن ثقة سيده فيه عظيمة وأن هذا الأخير لايقصيه عنه بهذه السهولة ولسبب تافه . أن علاقة مسيو هاڤيلان بخادمه جرول ترجع إلى عشرين عاما . حينما كانا يبحثان سويا عن صامويل أوار .

وإليك هته القصة :

كان مسيو هاڤيلان لا يزال حديث السن حينما سمع عن موت الشيخ دافيد أوار الذى ذهبت المقصلة برأسه عام ١٧٩٤ وقد كان هذا الباسل مثال التضحية والوفاء ، فأنه بقى على عهده لمخدوميه . وضحى حياته فى سبيل حفظ ثروتهم التى ولوه أمينا عليها . وقد أعجب وريث هاڤيلان بهذه المروءة وأكبر فيه البسالة والوفاء فلما تولى ثروته بنفسه أخذ يبحث عما إذا كان هذا الرجل قد ترك سليلا له . فعلم أن ولده الصغير ويدعى أندرو أوار يشتغل بالتجارة فى كالكوتا . وفى الحق كان أندرو أوار متأهلا بسيدة هندية وقد اشترك مع رجل براهمى لتأسيس شركة تجارية تحت اسم : « أندرو أوار ، وليسا ليسالى وشركاهم »

أبحر مسيو هاڤيلان مع جرول ليقابل أندرو فى كلكتا ويقول له : أن جدك قد ضحى نفسه فى خدمتى وكان فى ذلك مثال الشرف والمروءة . فاسمح لى أن أصافحك . وألا يمكننى أن أحوز شرف خدمتك ، فأؤدى لك أى شىء تطلب ؟ » ولكن . لما وصل إلى كلكتا ، فى عام ١٨٤٩ ، علم أن شركة أندرو أوار وليسا ليسالى وشركاهم ، قد انحلت بموت مسيو أندرو الذى قضى عام ١٨٤٨ ـ ضحية الكوليرا تاركا زوجته وابنه صامويل

الذى لم يتعد الرابعة . ولما لم تكن مادام أندرو بذات ثراء فقد تركت المدينة مع ولدها الصغير . ولم يتمكن مسيو هافيلان من ترسم آثارها . ولكنه علم أن ليسا ليسالى فى جزيرة بوربون . فذهب إليها حيث وجد البراهمى يعطى دروسا فى الأنجليزية لأولاد حاكم المستعمرة . وقد قال السيد ليسا ليسالى للمسيو هافيلان أن أرملة أندرو أوار قد اصطحبت ولدها إلى أخيها مسيو جونسون أحد ضباط الملك السابقين .

وقد انتهت أبحاثه عند هذا الحد . وبلغ صامويل أوار الآن سبعة وعشرين عاما . وفى كل أسبوع كانت التيمس تنشر أعلانا يدعوه أن يعطى عنوانه للمسيو مارتن هافيلان فى پارى ، ولكن صامويل إوار لم يبد أى أشارة تدل على بقائه على قيد الحياة .

وقد والى مسيو هافيلان أبحاثه منذ خمس وعشرين عاما دون أى ملل بل واصل بحثه يوما بعد يوم وكان يشعر بأن هذا واجبا ، يتناوله كل صباح كما يتناول النجار فارته ويساعده فى ذلك جرول .

وقد حضر كثيرون أمام مسيو هافيلان وادعى كلا منهم أنه صامويل أوار بن أندرو المتوفى ولكن كان يتضح كذبهم .

***

ساءت صحة مسيو هاڤيلا فى خريف سنة ١٨٧١ وأصابه رق ودوار . وقد حدث فى أحد أيام الشتاء الأولى ، وقد أقاموا فى نيس ، فى مغنى أوليڤير ـ أن جلست هيلين فى الردهة تقرأ قصة ولكنها رأت زوجها داخلا فما لبثت أن صاحت خائفة :

— عيناك ، أنظر إليهما ، هناك ، فى المرآة !

لقد تحولت عينا مسيو هاڤيلان الزرقاوان إلى سوداوان وانطبق فمه ، وغرب منظره . . ثم تمتم :

— سيأتى ، سام ، سام أوار .

٤

ذهبوا ليقضوا ختام الشتاء فى پاري . وكان فناء المنزل يغص بالصناديق والحقائب . ووقفت السيدة جرول تجيل نظرها اليائس . وقد ارتدت ثوبا هنديا ، وأحيط وجهها بهالة من البخار ، وتدثرت بحرملة . وهى تضع بطاقات الطرود كل فى مكانه منفذة فى ذلك أوامر الوصيفة التى وقفت تلقيها لها من طرف شفتاها فى حين تلتفت وتلقى بأوامرها إلى هؤلاء الذين يرعون الجياد .

رمت هيلين بمعطف السفر إلى مقعد . فأخذه مسيو هاثيلان وأطبقه بعناية ولم تطق صبرا فأخذت تعزف النشيد التركى على زجاج النافذة . وبدت قبة الأنڤاليد لامعة تحت سماء ملبدة بالضباب . واكتسبت الأشياء المجاورة لونا أخضر . وهنا شعرت هيلين بملل فدخلت إلى غرفتها .

أعلن جرول قدوم مسيو فيلير دى سيساك .. أتى رجل الأعمال مسرعا ليحيي صهره ويقبل ابنته . وكانت ملابسه مقفلة بالأزرار حتى عنقه . أما قبعته التى حملت آثار التكسير ، فلقد عصت عن

أن تخضع لكى النار ، فاستعاض عن ذلك بيلها بالماء . وقد تحايل على شعره الأثيت الثائر فثناه مرة أخرى ! أما حذاء مسيو فيلير فقد كانت كعوبه تكونان شكلا منحرفا ويميلان إلى ناحية دون أخرى حتى أنه أصبح مجبرا على السير كعصفور الكنارى لكى يمكنه أن يهتدى إلى خط عمودى .

لم يصافح مسيو هاڤيلان ضيفه مسيو فيلير وكم آلمت الأول كلمات الأخير « عزيزى الجزائرى ، صهرى العظيم . . »

وأخذ يتكلم عن أعماله وعن الدهر قد جهم له وجهه . ولما لم يسأله مسيو هاڤيلان عن أعماله واين كان . صاح :

— وعلى ذكرى هذا ، لا اخفى عنك أننى اجتزت أوقاتا عصيبة . وكافحت ما يمكن أن يسموه أزمة .

لم يمكنه أن يخفى عن مسيو هاڤيلان مصائبه . وقد تتبعه أربعة أعوام فى طلب المال . أرسل اليه يطلب مالا بالمنطاد ، ثم بواسطة تاجر طيور ، وبالكتابة فى جريدة الديلى تلغراف وقد أقتنع مسيو هاڤيلان فى أول مرة . ولكنه بعد ذلك لم يكن ليعنى بالرد عليه . وقدتوجه مسيو فيلير إلى مسيو س . سيمسون المالى بشارع النصر واستعمل أسم صهره المحترم والمحبوب هنالك

ليقترض مبلغا من المال . وهذا ما جعل مسيو هاڤيلان يحنق عليه وأمام هذا السكون لم ير بدآ من أن يصارح صهره بغيته . فقال أنه يشتغل بمشروع خطير .

وإذا مافتح هـذا الباب حتى ضرب فخذيه بيديه وتنفس طويلا ثم عاد إلى حديثه وقد صوب إلى الطنف نظرة ناپليونية !

— إن هذا المشروع سيجيء فى وقت الحاجة إليه . فهو عبارة عن مصرف للعمال مؤسس على قواعد وأنظمة حديثة . فى هذا العصر الذى ابتدأت طبقات العمال تحس حاجتها إلى الأقتصاد . إن هذا المصرف سينبه العمال إلى الخطر الذى يهدد المجتمع من جراء إسرافهم. سوف يبعث فى الطبقات الدنيا، طبقات المياومة ، روح الأقتصاد وهذا ماحدى بالحكومة السـابقة أن تدعو إلى تأسيس مصلحة من هذا النوع . يجب أن نبدأ .

فى هته اللحظة رأى مسيو فيلير دى سيسـاك بريق قبعته الأثرية فى الشمس التى شاءت الطبيعة ألا تقع إلا على قبعته فى حين خلت الردهة منه بل كل المنزل . أضاف بنشـاط ـ ولنبدأ سريعا ـ ثم سأل بعد ذلك إذا كان مسيو هاڤيلان يود أن يعرف شيئا من قوانين مصرف العمال ؟

فأجاب الأخير : ـ كلا !

كان مسيو فيلير يريد أن يعطى محدثه فكرة عامة عن نظام المصرف ، وقد ظن أن صهره العظيم سوف يعطيه نصائح غالية .

وأخيرا لماذا لا يصارحه . أن هذا العمل فى حاجة إلى رؤوس أموال كبيرة . وهو يود أن يهرع مسيو هاڤيلان ليكون من أوائل المساهمين فى مصرف العمال .

إلتزم السكون وقرع مسيو هاڤيلان الجرس ينادى خادمه الذى جاء يعرج . قال له .

— جرول . أطفأ هذا السيكار .

كان هذا سيكارا حقيرا ثمنه صولديين فى النزع الأخير ، وضعه مسيو فيلير دى سيساك عند قدومه على حافة طنف .

ثم واجه مسيو هاڤيلان محدثه مسيو فيلير وقال :

— لن أسديك نصحا لأنك لاتعرنى سمعك . ولن أعطيك مالا لأنك لاترده . أنك لست رجلا ظريفا . أرجو ألا أراك هنا مرة ثانية ، هذا وتستطيع أن ترى ابنتك وقتما تريد . ثم خرج.

كانت هذه صفقة مؤلمة للمسيو فيلير الذى شعر بانتهاء حياته

ولكنه وجد لديه الشجاعة الكافية لأن يضم إليه أبنته وأن يلقى إليها بترهاته . وقد استقبلته هى بحنان الأطفال .

أن فى أخلاق هذا الرجل شىء من اللين والتساهل شبيه بكسل ابنته . وبنظرة واحدة تلقيها امرأة ، رأت هيلين قميص والدها العتيق . الذى انتثرت خيوطه عند الأطراف ، وسترته التى ابيض لونها . وقبعته التعسة وقذارة هيأته ..

وكأنه فهم مايجول فى خاطرها ، فابتسم المسكين واعتذر لأنه أهمل قيافته لما تقدم فى السن . سألها عما إذا كانت سعيدة . ونصحها أن تحب زوجها . ثم ، بعد أن قبلها بحنان ،نزل الدرج بخفة وقد أعشت عيناه ، واستقامت ذقنه ، وغاصت رأسه تحت قبعته الخالدة ..

وقد لاح لهيلين أن والدها غضب من زوجها .. فتسمم عقلها نحو الأخير بأفكار سيئة بمجرد التلميح الذى أمكنها أن تفهم منه دون أن تتلقى شرحا ..

ولما كانت نفسها تفيض عطفا وحنانا ، فقد وجهت ذلك نحو أبن أخت زوجها چورج الذى كان جميلا ظريفا .. ولد چورج هاڤيلان فى أفرانش ونشأ على الديانة الكاثوليكيه

وسط المستعمرة الانكليزية الصغيرة القائمة فى هذه المدينة وقد فقد أبويه وألحقه عمه ـ الوصى عليه بالقسم الخارجى بكلي ستانسيلاس . وكانت تبدى له هيلين أظرف الملاحظات وأغل النصائح ليصير أسمى مخلوق .

وقد دعته يترك فروضه هذا المساء ليذهب إلى الممثّل .

ولقد أصبحت أيامها مريرة ، واعتراها الملل ، فهى تبكى وتتمنى أن تعيش ولو فى أحقر كوخ بجانب والدها .

هرعت خفية ، إلى رجل الاعمال ، الذى يقطن فى شارع روما فى الطابق الرابع من منزل حديث البناء ، وقد انتعشت من هذا الشوط الذى قطعته فى العربة ، ولكنها كانت ترتجف وأرخت نقابها كأنها ذاهبة إلى موعد غرامى !

وكان أثاث والدها أشبه شىء بأثاث طفل صغير . فترى غلايينه هنا وهناك ، وسط الأوراق المبعثرة على المناضد . وانعدم النظام فى هته الغرفة . قبلت هيلين والدها على خديه ، ودارت بنظرها فى زاوية الغرفة ، وحينما لمحت بعض أشياء لسيدة منها مظلة و بعض أزهار البنفسج ، تظاهرت بأنها لم تر شيئاً . وضمت شفتيها حذراً من الضحك ولكن عيناها كانت تضحك . جلس

والدها أمامها لا ينطق من الحب والأعجاب .

عبثت بالأوراق التى أمامها ، وأكلت من الحلوى ماشاءت ، وشربت وضحكت ثم تأهبت للرحيل

أصلح الوالد طاقيته التى اختل نظامها من التقبيل ثم همس فى أذنها :

— أحبى زوجك ، أحبيه من كل قلبك

وما أن استوت فى العربة ، حتى تخيلت زوجهاأمامها مضجعاً وقد بدت عيناه البلهتان ، وخداه المشربان حمرة ، واللذان يشبهان قطعة اللحم التى لم يتقن طهيها ، وقد ابتسمت دلالة على الاستهجان ، وهنا تعود بها الذاكرة الى صورة قديمة فى طوايا نفسها ، فى ذلك العالم القديم الملىء بذكرياته ،

ها هو ذا وجه كاد أن يصبح منسياً . . ولكنه محبوب . عزيز لديها . . وجه غائب لم يؤوب ؟ أنه ماثل فى ذاكرتها ، لقد ذهب بعيدا ، بعيدا جدا ، دون أن يؤوب البتة ؟

كانت يوما جاثمة على ركبتيها ، تنظر من زجاج النافذه بملل وإذا بوصيفتها تدفع لها بطاقة شخص يطلب مقابلتها . . وما أن نظرت إليها حتى نهضت مسرعة وأصلحت خصلات شعرها وهندامها ثم دخلت إلى ردهة الاستقبال . وقد تطاولت رقبتها كالأوزة الكبيرة.

٥

وقف رينيه لونجمار أمامها وقد أصفر لونه عن ذى بدء . وامتلأ خديه ، ولمعت عيناه ولكن فى شىء من الألم . وبدت عليه آثار الحمى التى أصيب بها فى الأقطار الحارة . واحتفظ بنظرته التى فيها شىء من التحدى والجرأة . وفمه الكبير الذى يدل على العطف قالت له :

ــ هاأنت ترى أن الأرض صغيرة . وأن الانسان فى مكنته أن يطوفها. لست بالمشدوهة لأنى رأيتك ثانياولكننى سعيدة .

كان كل قد اعتزل عن الآخر مدة كبيرة من الزمن وعاش كل حياة مجهولة عن الآخر . لذا فأنهما يجدان فى التعارف من جديد . وقد بدأت هى بواجبها كصاحبة المنزل ثم تحركت بدافع خفى فألقت إليه الكلمة الأولى التى مصدرها القلب :

ــ لقد كنا نفكر فيك لماما

هنا انطلق رينيه الى الذكريات القديمة ، فتكلم عن أكواب الشاى فى شارع نيف دى پتيت شامپ ، ونزه ميدون ؛ الأثواب الطبيعية الحمراء والبيضاء ، صديرية مسيو فيلير .

سألته عما إذا كان يضع الضفادع فى جيوبه ؟

ومضت برهة من الزمن . انتقل بعدها إلى سرد رحلاته وما كان من أمرها . وهى تحملق فيه بعينيها الجميلتين . وسألته عما سيفعله . فقال أنه تعب من جراء الخدمة الطبية العسكرية وسيستقيل ، ويشخص إل الضياع حيث يتمتع بالطبيعة ويمتهن حرفة الطب . فأذا قدر له أن يلتقى يوما بفتاة ريفية تعنى بتربية صغار الدجاج تحت رعايته ، فسيقترن بها . قالت بحرارة : —

— آه ! تريد الزواج ؟

ولكنها فهمت من أجابته أنه لا يبغى ذلك ، لأن قلبه حزين وبه جرح لم يلتئم . وقد تكون ذكرى مؤلمة !

عاد چورج من الكلية فرمى بنفسه بين الأثنين حاملا كتبه المدرسية ونظر إلى الضيف الجديد نظراته البريئة وابتدأ فى اللعب ، فلم تطرده هيلين ولكنها أمرته أن يلزم السكون ويؤدى فروضه . . وعاد الطبيب يقص أقصوصاته . فأطبق الولد قاموسه محدثا ضجة كبيرة ، وأخذ يسحق مقلمته بأسنانه ورفع رأسه حينما سمعه يقص قصة حيوانات البحر الحية التى أكلها بحار فوق سفينته .

جاءت الوصيفة تقول أن سيدها ، الذى يتالم ، يرجو أن يرى السيدة قريبة منه .

كانت غرفة مسيو هافيلان كبيرة وملأى بالأشياء الغريبة فى أوضاع خاصة . هناك منضدة مكسوة الزجاج صفت عليها الزجاجات وعليها العناوين ، تاج ، جوردين ، سيموئس ، أورتاس ، تيبر ، أهيو ، الخ . . ويحتفظ بنصف زجاجة من مياه الأنهار التى عبرها ثم منضدة زجاجية أخرى ، تحوى نماذج لكل أنواع الرخام الموجودة فى العالم . . وهناك دولاب هو مجموعة ذكريات تاريخية . يحوى أحجار من سجن تاس(١) ، من منزل شاكسبير الذى ولد فيه ، من كوخ جان دارك ، من مقبرة هيلو ئيس(٢) ، بعض أوراق من شجرة الصفصاف الباكية لسانت هيلين ، قطعة من أشعار لاسنير فى السجن الشهير بالكونسيرج ، صندوق ساعة سرق من التويلرى سنة ١٨٤٨ ،

---

(١) شاعر أيتالى كبير ولد فى سورنت سنة (١٥٤٤ ـ ١٥٩٥)

(٢) هى حفيدة فلبرت العالم الكبير فى قوانين الكنيسه ، ولدت فى بارى سنة (١٦١٤ ـ ١١٠١) واشتهرت بعلاقتها ببيير أبلارد الفيلسوف والمبرز فى علم الالهيات وقد اشتهر أيضا بحوادثه المفجعة .

ومشط كانت تملكه الآنسة راشيل[1]، وزجاجة تحوى خصلة من الشعر لجوزيف سميث نبي المورمون[2]، هذا غير التذكارات الأخرى، وفى الغرفة مناضد كبيرة من الخشب الأبيض، وغيرها من صنع بعض الفنانين والكل مغطى بأفخر الأنسجة. وكانت تتصاعد من الغرفة رائحة العقاقير القوية. أما مسيو هاڤيلان فقد استلقى على مقعد طويل قريبا من مضجعه الحديدى وألقى غطاء من أغطية السفر على قدميه فى حين اشربت ديباجته حمرة، واظلمت عيناه. أخذ يدى زوجته بحنان هؤلاء القوم الذين يشعرون بان كل مالهم قد ولى. أسر لها أنه يحبها، وأنه يشعر من جهتها بالامتنان ثم أنه يشعر بخطر المرض الذى يرجو الشفاء منه. أنه يثق بدواءه الشافى الذى يجيد تحضيره جرول. وكان ينقطع عن الحديث بسبب الدوار الذى يعتريه. استأنف الحديث: يجب أن اعترف لك ياهيلين أنه قد مرت على دقائق اخطأت فيها. وهذا يرجع لمرضى. إن كل ماعملته فى هته الدقائق يجب ان تطوى صفحته.

---

(١) ممثلة فريدة نبغت فى فن التراجيدى. ولدت فى سويسرا (١٨٢٠ـ١٨٥٨)

(٢) طائفة فى الولايات المتحدة تكون ولاية صغيرة على شاطىء البحيرة المالحة

ومن حسن الحظ أن تكون أعمالى منظمة . وقد أودعت الوصية عند مسجل العقود . . . وهنا قال لها أنه يترك لها حق الانتفاع بثروته التى يجب أن تؤول الى چورج هاڤيلان . وترك لخادمه جرول جزءا وقد أخبره بذلك . ضغط على يدى زوجته من جديد ونظر إليها نظرته الغريبة التى تشع ألما ثم رجاها أن تصغى إلى ما يأتى : -

— إذا ما انتقلت أنا من هذا العالم وأردت أنت أن تسدى إلى جميلا أبحثى ، ياعزيزتى هيلين ، أبحثى عن صامويل أوار واذكرى له شعورى ورغباتى الأخيرة وأستحلفك باسم سيدنا المسيح الذى سيبعث الأموات إلى حياة جديدة ، ألا تهملى أعطاء سليل داڤيد أوار الأخير المبلغ الذى أوصيت به . أنه على قيد الحياة . وقد رأيته فى بعض الليالى . أننى أعرفه لو حضر . سوف يحضر .

شخص المريض ببصره إلى ستارة قاتمة تمتد على أحد الابواب ومد يده التى ترتعش وصاح :

— هناك ، هناك ، أمام هذا الباب ، هذا هو ، هذا هو سام أوار !

هل ترين جيدا هته العلامة التى يحملها فى رقبته ، تحت قميصه البحرى ، هته هي علامة حمراء ، من أثر جده ، الشيخ داڤيد ... سام ! سام ! أوه ! يا ألهى !

سقط على مقعده الطويل ونام نوما خفيفا . لم تعرف هيلين ماذا تفعل وسدرت بين الأغطيه : نادت جرول الذى أبعدها بخشونة واستولى على المريض .

وفى المساء إعتراها الأرق ، فرأت على ضوء القمر ، زوجها ينزل من نافذة غرفته ، وقد التف فى دثار من الصوف ويسير إلى اليمين قاصدا عينا قريبة من الأسطبل ، ذهل وجهها خلف زجاج النافذة . وأحست بألم فى جذور شعرها . فلم تقو على الحركة أو الصياح . رأت جرول يخرج وهو نصف عار من وكره الذى ينام فيه ، متتبعا سيده . رأت زوجها يطيل النظر الى قاع البئر ثم رفع رأسه ومد يده كمن يبحث من أى جهة تجىء الريح . ثم دخل من نافذة غرفته . ورأت جرول يهز منكبيه ويدخل إلى منامته وارتسمت عليه علامات الشر بأجلى مظاهرها وظهرت مادام جرول برهة . ولكن هيلين سمعت جرول يضربها بعد دخولها غرفته . ولقد أصبح مسيو هاڤيلان يغط فى نوم

عميق ، يسير ، يتكلم ، يتحرك وهو نائم !

فى الغداة وجدت هيلين زوجها ذا نشاط . يعمل فى سكون فى الكتابة على الأحجار الصغيرة المأخوذة من بعض الآثار الشهيرة .كتب على وريقات عليها أثر كتابة ممحاة . هته الكلمات : كوليزى (١) ، كاتا كومب (٢) ، مقبرة سيسليا (٣) ميتيلا . وكانت عيناه ذوا الزرقة الباهته ، لاتدلان على شيء . ولكن هيلين لم تطمأن بالا اليه ، فأرادت أن تظل قريبة منه ، ووعدته أن تسهر عليها بنفسها وأن تدعو الأطباء رغما عن أنه لا يريدهم .. ودخل جرول حاملا زجاجة وكوبة . ملأ الكوبة من الشراب

---

(١) مدرج هائل فى روما بدىء فى بنائه أيام الأمبراطور الرومانى فيسبازيان وتم فى عصر ولده تيتوس • ويحوى ثمانون صفا حجريا .. ويتسع لثمانون ألف من النظارة . وكان يجرى فيه قتال الأبطال والحيوانات وكان الرومانيون يقبلون على هذه الرياضة الدموية ويحضرها الأمبراطور ويمر المقاتلون أمامه وهم يصيحون « السلام ياقيصر ، أن الذين سيموتون يحيونك »

(٢) مقابر تحت الارض ويطلق عليها جبانات المقابر والشهيرة منها ، وهى في الاصل كهف يستخرج منها حجر البناء فى روما ونابل وسرا كيورو بارى .وقد اشتهرت الأولى لانها استعملت ملجأ للنصارى فى عصر اضطهاد النصرانيه . وقد وجد فيها نقوش ورسوم آية فى الفن وغاية فى الاهمية بالنسبة لتاريخ النصرانيه .

(٣) لعله يريد ميتيلوس الرومانى الذى ضرب القرطاجنيين فى سيسليا .

سم قدمه إلى سيده وهو يحدق فى هيلين وقد صوب إليها نظرات هى غاية فى القحة والتحدى حتى انصبغت بلون أرجوانى .

وما أن شرب مسيو هافيلان الدواء حتى شعر الدوخة وشلت أعصابه . واتسعت حدقتيه بشكل غير مألوف . ومنذ ذلك اليوم وهيلين تحس أمرا جديدا . وساورها القلق . وذات مساء ، نحو الخامسة ، لاحظت آثار حذاء قد قويت نعلاه بالحديد على بساط غرفتها . وكان الأثر يدل على أن صاحبه قطع أنحاء الغرفة فى خط معوج من الباب الخارجى إلى غرفة الزينة . وهذه الآثار خفيفة لم تكن لتراها لولا ضوء الشمس ، التى أضاءت فى هذه اللحظة فأظهرت آثار التراب الرمادى على البساط النفيس وقد ذعرت فنادت وصيفتها وافتقدتا غرفة الزينة . ولكن كل شيء على ما هو . أخذت تجهد نفسها فى تعرف هته الآثار .. وأتعبها التحقيق دون جدوى .

عاد رينيه لونجمار ، وأخذت هيلين ، التى أتقنت زينتها كما يريد ، تشكو اليه بؤسها وتعس حياتها وآلام زوجها . وقد شعرت بعاطفة الحب نحوه وتمنت لو تهوى على هذا الصدر الكبير الحار فتبكى وتستعطف . فى حين ظل رينيه صامتا أمامها .

وهو يجتهد ألا يضيع ثقتها فيه ، إنه يحبها باحترام . لقد كانت شعر حياته الصبيانية .

وقد عادت له أخلاقه القديمة .

فى نفسه مكان مرتفع عظيم لمخلوق سامى . لم يجد من يستحق هذا المكان إلا هيلين ، وهته كانت تعبة ، ضعيفة ، منغصة من هذا الزواج الخالى من الحب . تلتزم جادة العقل ، وتتمثل فيها الحشمة والوقار أمامه .

حدثته عن مرض زوجها . هز رينيه رأسه ولم يعرف ماذا يقول . ولكن أبدى احتمال سوء المعالجة . ولم يشخص الجراح المساعد المرض حسب سيره الطبيعى ، وكما شرحوا له عوارضه .

وقد عزى اتساع الحدقتين إلى الأسراف فى تعاطى الدواء المركب من النبات المسمى بحشيشة الحمرة . وكان يجب عليه لمعالجة داء المفاصل أن يستعمل ملح كلورات هذا النبات . ثم شرح لها رينيه خطأ هته المعالجة . ولذا جددت عزمها على استدعاء الأطباء . والأشراف على المريض بنفسها .

وفى الغداة وجدته فى الهرى ينعم قطعة من الخشب بعناية كبيرة ، فقد كان نجاراً ماهراً كما هو كنيائى . لما أن رأته هادئا ،

يتمتع بالراحة ، خيل لها أنهـا حالمة ، وقد حدثها عن الطاهى ، الذى طرده من خدمته لأنه سارق بعد أن اكتشف جرمه جرول . وكان يضع آلته التى يستعملها فى تنعيم الخشب (الفارة) على طاولة النجارة ثم يزيل برشاقة النشـارة التى تعلق بأطراف معطف زوجته الذى ترتديه فى الصباح . وقد تجلت عيناه جميلتان يحتفظان بلونهما الطبيعى .

فـكرت فى رينيه ونشاطه وقدرته على بعث السرور فى النفس . فهو كالـكتاب الذى أحكمت عباراته ، ثم نفسه المليئة بروح الشباب وقوته . وقد امتلأ قلبها كراهية وهى تتأمل هذا الشيخ . . جاء جرول فى الساعة المعتادة يحمل الدواء لسيده . ولما رأى هيلين فى هذا المكان الذى لم تمسـه قدماها من قبل ، دحرج عينيه ، عينا القطة الزائغة تتجلى فيها الحقد الـكمين . ثم . ككل المرات عند ما ابتدأ مسـيو هاڤيلان يتذوق شرابه ، رمقها جرول بنظراته الوقحة ، وشفتاه تتحركان عن غيظ . مدت ذراعيها إلى الأمام كيما تنتزع هته الـكوبة من بين شفتى الشيخ ولـكن جرول همس فى أذنها بلهجة سوقية آمرة :

— لا تفعلى ذلك يا بنية !

فسكنت خجلة وقد تحولت بيضاء كالثلج . شرب مسيو هاڤيلان الدواء وجفف شفتاه . ونزلت التعسة الدرج وهى تتخبط وتضرب أخماسا لأسداس . . وقد أخجلها جبنها ، وعولت على عدم الظهور أمام زوجها ولكنها علمت فى المساء من وصيفتها بأنه أصيب بألم شديد . وقد خلد إلى السكون حتى أنها ظنته قد قضى . . فتنهدت عن قلب مكلوم . . وقالت : « أنه لا يزال حيا ، لا يزال فى الوقت فسحة ، فلأتكلم . . لن أكون شريكة فى الجريمة لهذا . . . »

وفى اهتياج شعورها هذا ، تناولت عشاءها ، ثم استسلمت للكرى ، وهى تحلم فى رينيه الذى ملك عليها مشاعرها واستحوذ على لبها ونهاها . وكانت رأسها قد اشتعلت واصطكت أسنانها ، ثم لم تدر بعد ذلك ما الذى آلت اليه . رأت وجوها مخيفة تمر بها ولم يك ثمة وقت يسمح بتعرفها . أين هى إذاً ؟ وماذا يريد منها هذا الجمهور الغريب الذى ارتدى جميع أنواع أردية الملاهى؟ وشعرت بحر شديد يضايقها . هذا هو قط احمر يتغير لونه . ضمت ذراعاها وثنت ركبتاها . هاهى راهبة قد أتت تضع عليها

أغطية . ولكن لم هذا ؟ ثم هؤلاء اثنين أو ثلاث يمنعونها من الخروج

كان عليها أن تعمل شيئا ثقيلا . ولكنها لم تعلم شيئا أكثر من هذا . . صاحت . « أوه ! رأسى ! رأسى المسكينة ! » أحست بألم فى مخها فهى تبحث عن حائط ، حائط من حديد تسحق به هذا المخ وتستريح . أوه ! يجب أن تسرع فتعمل مصرفا لتصريف الماء الذى يغلى هناك . قال صوت مجهول : « الجليد ! الجليد ! أيضاً » ولكنها لم تر جليداً ، وقد ضلت كما كانت وسط الرمال المشتعلة وعلى شاطىء من النحاس الذائب . صاحت : « رينيه ! رينيه ! خذنى إلى غابات ميدون ! هل نسيت وقت أن كنت تصنع لى باقات الورود ؟ » ثم هى تغفو فتحلم أنها عادت صغيرة تسمع الأقاصيص وتعاليم مسيحية لسيدة من سيدات الدير : « لا يمكننى استذكار دروسى ، يا سيدتى ، أننى أشعر بألم فى رأسى . إذهبى بى إلى المنزل . أريد رؤية والدى . » ...

وفى ذات يوم ، كانت فى مضجعها وقد خارت قواها ، وشعرت بجوع . فعلمت من المتدينة التى تسهر عليها ، أنها قد اجتازت مرضا خطيرا استمر ثلاثة أسابيع وأنها أنقذت . و بعد

بمجهود عظيم بذلته فى الرجوع إلى ذكرياتهاتساألت :ـ وزوجى؟

فقالت المتدينة ألا تقلق فهو سائر إلى التحسن وقد انتعشت هيلين ونقهت ولكنها لاتزال تحس آلام الرأس وفقدان الذاكرة اللذان يعقبان عادة الحمى العقلية . ولم يكن يشغلها إلا شعور واحد هو خوفها من رؤية زوجها . وقد دق قلبها حينما سمعت أن مسيو هاڤيلان قدنقه وسيحضر ليراها فى غرفتها . نظر إليها بعطف وحنان . وبثها لواعج حبه . وللمرة الأولى، ارتسمت على هذا الوجه الغليظ ابتسامة . وقد كانت حقا ابتسامة داخلية تعبر عن إخلاص . الأمر الذى جعلها تعطف عليه فبكت وداعبت الشيخ مداعبة الأطفال . لفت ذراعيها حول عنقه ولكنه كان قد استقام فبذلت مجهودا وإذ ساقها فكرها إلى جرول ودواؤه . فأخذت يدا زوجها وقالت بصوت يفيض حنانا.

— إذا كنت تحبنى ، إذا كنت تريد أن تبعد عن كلانا شبح الموت المخيف ، أطلب منك أن تبعد خادمك اليوم وإلى الأبد أن مافعله . . . هذا مريع . . . لا يمكننى أن أقوله . . . أبعده ! أبعده ! ، ـ ثم اختفت وهى غارقة فى بحر من الدموع .

وتذكر مسيو هاڤيلان أن هيلين كانت تمقت هذا الخادم من

قبل . وكم شكته إليه فظن أن ذلك دون أى سبب ، ولكنه رأى الآن أنه من الضرورى أن يضحى خادمة فى سبيلها

أمر أن يؤتى إليه بجرول فى المعتمل حيث قال له :

— جرول ، يجب أن تنفصل عنا . أننى راض عنك ، وقد كنت أود أن تظل إلى جانبي حتى وفاتى ، ولكن أصبح وجودك فى هذا المنزل محالا لأسباب لامحل لذكرها ! لن أغير شيئا من جهة مكافأتك . يجب أن تغادر المنزل يوم الجمعة وسأقوم بأود حياتك وسوف أعتنى بامرأتك التى أبقيها فى خدمتى وأرجو أن أوفق فى العثور على صامويل أوار .

ليس عندى ما أقوله لك أكثر من هذا .

لم يجب جرول فانحنى وخرج .

٦

إذاً .. أُبعد جرول يوم الجمعة . فى الغداة شعر مسيو هافيلان بتحسن لم يشعر به منذ شهور كثيرة . فقام فى هذا اليوم بنزهة فى غابات بولونيا تصحبه هيلين . التى تعافت .

سبب لهما دوى العربة ومداعبة الهواء تعبا لذيذا وقد تجلت على هيلين مظاهره . أحست فى هذه اللحظة بقلبها الضعيف يخفق بحب زوجها العجوز . وتحت تأثير المرض ، فى لحظة مريضة ، أحبت زوجها الجالس بجانبها تغوص سيقانهم تحت فراء واحد .

أخذت تمتع نظرها بالأشجار ، مصابيح الشارع ، المارة التى تخلفهم العربة ، منازل شارع «شامب إليس» بحوانيتها التى تصنع فيها العربات والممرات المفروشه بالرمل . حيث جثمت الخيل تحت الأقواس ، فى الظلال ، وأمسك السائسين الجاثمين بقيادها . ثم لاح قوس النصر مرتديا حلته الدائريه من أنوار الطبيعة . وإلى الشمال الشارع الذى يؤدى إلى الغابات ، وقد ظهرت على ناصيته الحدائق الأنكليزيه . . وإلى اليمين كانت الفرسان تخطر

فى الممرات الرملية ، تسطع عليها شمس الربيع الفاخرة . وانتشر غبار أثارته عربة مقفلة ذات أربع مقاعد .. هذه هى فتاة شقراء جميلة تقود عربتها وتثير زوبعة فى الشارع . وجلس خلفها سائس ضاما ذراعيه إلى صدره .. وهب نسيم الغابات اللطيف على العربة . وأخذت العربات تتلى ، وقد أطلت منها وجوه مزودة بأنواع المساحيق ، وكانت ترتفع التحيات من عربة إلى أخرى . ويقترب الفرسان وهم يبتسمون من السيدات اللاتى احتجبن تحت غطاء عرباتهن المظللة . ومر من الطريق المقابل عرس لبعض العمال سائرين على أقدامهم . وجدت هيلين أن زوجها على غلطة ليست مقبولة . لقد عهدته رجلا هادئا رزينا .. أن سكون هذا الرجل ، وهدوء وجهه ، وبساطة أفكاره ، كل هذا قد حاز أعجابها الآن . أنها تجله وتبجله منذ أن أنقذته . ولكنها من جهة أخرى لاتزال تتذوق السعادة بشىء من الضعف والتعب الذى يتلاشى . كانت تنكمش فى سرور الهرة التى تحس البرد .

غادروا العربة قريبا من الشلال ، إلى حيث دخلوا مقهى كيما يتناولوا شيئا من اللبن . إلى يمينها وشمالها ، كانت الموائد

تضم إلى جوانبها أغمار الشيوخ يهمسون وقد بدت نبراتهم نسائية . وجلس أمامها ثلاث شبان يتبادلون الحديث ، بصوت جلى . ولم تعرف من هم هؤلاء الجالسين أمامها . ولكنها عرفت هذا الذى أولاها ظهره . وبالرغم من أن الخادم وقف حائلا بينهما إلا أنها عرفته من نظرة واحدة إلى ظهره . شعرت بآلام شديدة فى المعدة ، وجفاف فى حلقها ، والتهاب خديها . ولكنها فى الوقت الذى تتألم فيه تشعر بفرح .

كان هذا الجالس قريبا . والذى سبب لها هته الآلام هو لونجمار ولم يك يدر أنها على مقربة منه . لهذا فهو منهمك فى حديثه . وقد ضمنه آرائه الغريبة كعادته . قال لأصدقائه :

— ان النطاسى الشريف الوحيد الذى أجله ، هو پينيل . أنه لم يعط قط دواء لزبائنـه ، خوفا من تعبهم . أو أن يعرقل سير المرض . وقد ابتهج عند ما أمكنه أن يشفى بطريقته جرحا امتنع عن مداواته بالعقاقير . وأمام هذا النجاح الباهر الذى حازه فى هذا الجرح . ظل نبيهاً ، محترماً . فيا له من طبيب عظيم!

تلاشى صوت ريفيه بين صوت الضحك الذى ارتفع وقتئذ . وزاد اللفط . واستمر الثلاثة فى الحديث . أماهيلين فقد أحست

طراوة فى حلقها ، وامتلأت آذانها بالأصوات . ولم تكن عيناها لترى شيئا آخر . وتندى جبينها بالعرق . ولما أن رآها زوجها على هذا الحال سألها عما إذا كانت تعبة وهل تريد أن تعاود الدخول ، ولكنها لم تكد تلتفت إليه حتى وجدته فى حالة غريبة . فقد تقلص وجهه ، وبهتت عيناه ، فتأهبوا للرحيل ، وهنا رآهم لونجمار ، وقد تبادلا نظرات قوية كادت أن تجذب كلا نحو الآخر .

فى الغداة ، لم يتمكن الشيخ من مغادرة غرفته ، وظهرت أعراض المرض المتقطع مرة أخرى . وبعد بضعة أيام كانت حالته تنذر بالخطر ، وفى صباح الجمعة دعت هيلين طبيبا . وفى هذا اليوم كانت هيأة المريض مخيفة . تضخمت العروق . وخرجت العينان من تجويفهما . وهذى هذيانا غريبا . وأوصى الدكتور هرسان ، الذى كان يعيده دواء ضد التشنج ولكن لم يفد شيئا . فقد شخص جرحا واسعا عميقا وسط الأعصاب . وقد خاف أن تحدث الخاتمة المفزعة بعد حضوره توا . فصرح أن الحالة سيئة وطلب عقد مجمع من الأطباء فى المساء للمشاورة .

فى هذه اللحظة أتم جرول حزم أمتعته بواسطة امرأته ، ثم

استقل مركبة للكراء تاركا القصر ، تنفيذا للأمر الذى تلقاه .

أقامت هيلين قريبا من المريض . مستلقية بهيئة مخيفة . ولم تجسر أن تنظر إليه ، ثم ، على حين غرة . حملقت فيه بشكل غريب ، فحصته بكل عينيها وأرادت أن تراه ، تراه إلى النهاية حتى المات .

كان التعس يتصارع بين خادمين ، الذين بذلا مجهودا كبيراً فى أبقائه تحت الفراش . ذكر امرأته وصامويل أوار . وبدى صوته ، الذى تغيرت نغماته ، جديدا ، مرعبا . ولفظ أسم هيلين بنغمة متهدجة تفيض حنانا . وصرخ صرخة مرعبة ، ثم ضحك بعتوه ولكنه كان مفجعا . حتى أن الموازنة لمتعذرة . فأن أرجح الناس عقلا لا يمكنه أن يقارن بين ألفاظ الحنان والحب بتلك التى قصد بها التهكم المخيف . ولا تسل عن الرعب الذى سببه هذا المنظر لهيلين . فقد أحست كما لو أن سلوكا من المعدن المحمى فى النار تسرى من قفاها إلى عقبها . وأن أحشاءها تتمزق .. أصغت إلى صوت زوجها بانتباه .. أن عذابها يزيد لأنها لا تستطيع أن تميز نبراته . ولو أنها سمعته فى هذه اللحظة يصب اللعنات بلسانه وأصبعه لخف عذابها .

فى العاشرة مساء اجتمع حوله الأطباء هرسان ، جيرار ، وبلدك وقد قام بحركة عظيمة من كل أعصابه . ثم هدأ .

وكانت هيأته كالنائم . وقد ابتدأت هيلين تحس عذابا جديدا ، وألماً شديداً ، بل أفظع الآلام . لقد أحست أنها ستفقد الصداقة والأخلاص كامنين فى شخص هذا الرجل الذى أحبها . شعرت بالأسى يطرق قلبها من أجله . ذلك الأسى الذى يجعلها خائفة كالخسيسة المنافقة . أفليست هى التى . . ؟ .

أستمر تطور المرض ، وأصبح المريض فى حالة تضايق منها من يقومون بخدمته - إذا استثنينا الأطباء - وتدلت يداه العظميتان فوق الغطاء فى حالة برودة وضعف . أمسك الطبيب هرسان قبضة المريض اليسرى وقد لاحظ ضعف النبض ، وبرودة الأطراف . تدلى الأنف . فغرت العينان اللتان كان يديرهما حوله يريد أن يرى ويعرف كل ماحوله مرة أخرى . ثم أضجع رأسه إلى الخلف وصرخ ثلاثا وخلد إلى السكون . وأعلن الطبيب هرسان أن كل شىء قد انتهى .

سمعت هيلين ، التى كانت إلى اليمين تتوجع ، بهذا النزع الأخير . أنه مات ! شعرت أن الأرض قد فتحت تحتها ، وأنها

قد سحقت . وتمنت لو قد قضت هى الأخرى . يا ليتها لم تجىء هذا العالم . لم تساعدها قواها فخرت مغشيا عليها .

التقى الأطباء جيرار وبلدك فى الغرفة الخارجية بسيد قصير ذا لحية كثة وعوينات من الصدف . . وضع يده فى أيديهم وقال بصوت حزين :

« أيها السادة ، لقد كانت مجهوداتكم عظيمة ، إن علم البشر مهما تقدم فأنه محدود . وأن أمراء العلم لايستطيعوا دائما أن يسيطروا على الطبيعة . أننى ممن يحملون شرف معرفة الفقيد . سأوضح لكم الأمر . مسيو فيلير دى سيساك لن ينسى مابذلتموه من جهد فى سبيل إنقاذ صهره العظيم .

ثم ذهب إلى المكتب بخطا ثقيلة بطيئة ليتناول أكلة خفيفة .

ذهبت مادام جرول الغارقة فى دموعها وأحزانها إلى غرفتها حيث أخذت تصيح بصوت يشبه الدجاجة تنادى أبنائها .

أستدعى الطبيب هرسان إلى مادام هافيلان التى تستدعى حالتها بعض العناية . لما رأت هذا الرجل الكبير الأسود الذى لم تعرفه يلج غرفتها تولاها رعب شديد سبب لها هذيانا فضمت ذراعيها وصاحت :

— لست أنا ! أؤكد لك أنه لست أنا !

٧

نشط مسيو فيلير كثيراً بعد موت صهره . كان يُرى فى ثيابه السوداء ، ذى الدلالة على الحداد ، مع ابن أخت المتوفى ، وكان يسير ببطأ فى الشوارع الخارجية لكى يصل إلى مقبرة مونتپارناس حيث اشترى مسيو هاڤيلان له ولزوجته قطعة كبيرة لكى تكون مدفن لهما .

ولما كان مسيو فيلير لم يتعود إلا نادراً على أن يصحو من نومه فى الصباح فقد بدى باهت اللون ، يحمل وجهه آثار الأرق. واحمرت عيناه وانتفخت مقلتاه وكان منظرهما من خلف العوينات ذات الأصداف يكسب وجهه هيئة التعب والحزن وقد ساعده ثقل جسمه على حفظ توازنه فى السير . فهو يسير متثاقلا. ولما كانت الثروة قد غادت اليه من هذا الطريق الغريب فقد تغيرت قبعته التى علقها فى قصر هاڤيلان . وكانت الجديدة زاهية ذات حلية بيضاء ناصعة . أما حذاء مسيو فيلير فلم يعد يحدث هته الحركة القديمة المعتادة . بل كان يخرج كل خطوة صوتا كما لو كانت تقطنه الأرواح .

أمام البناء الذى شيد على طراز الفريد الثانى عشر ، والذى يُرى العمال وهم ينزلون من النعش الخشبى ويلهثون تعبا . ويبصقون فى أيديهم التى التهبت من أثر الحبال . وقف مسيو فيلير عديم الحركة يراعى السماء من خلف عويناته بشىء من الروحانية . فكان الناظر اليه يدرك أن أفكاره ليست محصورة إلى أبواب المقبرة البرنزية ، بل أنه يحلق فى قطر أثيرى حيث أجواء الفلسفة السامية . كما أنه يحلق أيضاً فى عالم الخيال اللانهائى لدرجة أنسته أنه فى عالم الوجود لولا أن سعالا خفيفا ذكره بأنه على قيد الحياة وأن صدره ما زال يخفق بها . ووقف خلفه نفر من الانكليز . أطلقوا شعورهم . على شىء كثير من الضخامة ، يرتدون حللا أنيقة . . ثم رجلان يتهامسان جانبا وهؤلاء من الذين يختلفون مع مسيو فيلير إلى مائدة واحدة ومن المترددين على منتدى كلمار حيث يتبارون مع مسيو فيلير فى البليارد والدومينو ، كذا جمع الغاشية فى إحدى الممرات الخلفية فى جوانب المقبرة يرفلون فى ملابسهم ، والطهاة فى قلنسواتهم ذى الأشرطة ، وكانت السراويل تمتد إلى شىء كثير فوق الأحذية .

وبعد دفن الجثة ، تقبل مسيو فيلير العزاء من جمهور المشيعين ،

بهيئة الرجل الشجاع ، الذى أصابته كارثة ، هلع لها قلبه ، وطار لبه ، ولـكنه يحاول أن يحكم شجاعته على عاطفته ، فهو يشكر الأشخاص الذين جاءوا يؤدون واجبهم الأخير باظهار شعورهم نحو الراحل الكريم . ولقد كان يكرر النظر اليهم لأن أحداً منهم لم يتمكن هو من التعرف عليه . ضغط على يد كل منهم بجلد يعبر عن قوله : « أشكركم ! أشكركم ! سأكون جلداً ! سأتأسى ! » ولما جاء دور رفيقا المنتدى ، إقتصر على لمس أطراف أصابعهم . وقد أرخى أهدابه ، وخاف أن يلمسوا أكتافه قائلين: « أيها العجوز المسكين . . . »

كرر لهم شكره مرات عديدة . ثم وجه هته العبارات أخيرا إلى قوم كانوا قادمين لدفن جثة قاض وقد حاروا من أمره . لا يعرفون ماذا يريد منهم هذا الرجل ذى الرداء الأسود . وكما أنه من المتعذر أن يميز بين أصدقاء صهره وبين الزائرين الآخرين الذين جاءوا يشيعون ميتاً آخر ، فقد قام باستقبال كل المعزين الذين حضروا فى هذا اليوم سواء أكانوا قادمين لصهره أو لأشخاص آخرين فأنه اضطر لاستقبالهم جميعا وشكرهم .

ومن هذا اليوم لم يخلع حلته السوداء ولا تنازل عن هيأته

الحزينة . وصار تردده يومياً على منزل هاڤيلان حيث يتناول إفطاره وغذاءه ثم يضع يده على رأس چورج ويصيح بين الزفرات الحارة :

— هذا الولد هو تسليتى الوحيدة .

وفى مقهى كلمار ، حيث يلعب البليارد كل مساء ، يصرح :- ليس الذى فقدته صهرا فحسب ، لقد كنت أنزله فى نفسى منزلة الأبن ، . وفى الحق أنه كان رجلا ظريفا .

***

سمعت چولى ، وصيفة مادام هاڤيلان ، بخبر الصرخة الغريبة التى صرختها سيدتها عند ما رأت الطبيب ، سمعت بهذا من البقال و القصاب اللذان كانا يتحدثان سرا فى الغداة ، وراجت الأشاعة أن أنكليزى «حى لاتور »- موبورج قد مات مسموما وأن زوجته اشتركت فى هذا الجرم . وفى بضعة أيام أخر انتشر الخبر فى الأحياء المجاورة . وقد دهش الدكتور هرسان القاطن فى شارع سان دومينيك ، عند ما سمع امرأته فى يوم الاثنين التالى تحدثه عن هته الأشاعة الدائرة ، عن هته الجريمة ، ولما

كان هرسان طبيبا عرضت له أحوالا كثيرة كهذه وهو يعتمد على علمه وعقاقيره فى أبحاثه ، لذا لم يثق بهذا الخبر واستحال أدانة مادام هاڤيلان . وأجاب امرأته أن الطب لا يدع مجالا لثرثرة هؤلاء الفضوليين . وقد وقع قرارا عن الوفاة مع زملائه ضمنوه وصف المرض الذى أصيب به مسيو هاڤيلان . فهو لا يشك بتاتا فى مادام هاڤيلان ، وقد أهمل هذا الخبر .

٨

ذهب لوبجار إلى مستشفاه فى الصباح لعادته ، ولكنه ، لانتشار وباء التيفوس ، تأخر عن ميعاده كثيرا . فلم يذهب إلى مونتبارناس إلا بعد أن دفن مسيو هاڤيلان . وكل ما أمكنه أن يراه من الأحتفال هو هياة مسيو فيلير المحزنة ، وهو يستقل عربة خارج المقبرة يجرها جوادان أسودان ، وضعتها تحت أمره مصلحة الأحتفال بالموتى . عاد إلى الخلف أمام هذا المنظر ، ومر بين الزهريات ، وأوانى الرمل التى تستعمل لمعرفة الوقت . والتى نقشت فى المدخل . وإذ بشاب قوى يمسك به . وصاح بصوت جميل يشبه روبير [١] وهو يصيح « أيتها الراهبات اللائى . . . » . هذا هو رفيق المدرسة ، بوتيي الذى اشتهر فى المدرسة بعدم مقدرته على فهم العلوم والآداب ، وهو يشغل وظيفة مخبر فى

---

(١) لعله يريد *Robert Macaire* أحدى شخصيات نزل أدريه . وأدريه هذا هو زعيم بروتستانتى ولد قريبا من جرينوبل واشتهر بقساوته . وقد أبرز هته الشخصية الممثل الفرنسى الذائع الصيت فردريك ليميتر (١٨٠٠ — ١٨٧٦) وشخصية روبرت مثال الخسة .

صحيفـة كبرى . وقد جاء ليسمع ثلاث خطب تلقى على مقبرة أحد أعضاء المجمع . أمسك بذراع لونجمار وقال :

— ياعزيزى ، أننى أدعوك لتناول العشاء معى ، هذا المساء ، عنـد بريقا .

فى أثناء الطعام كان لونجمار ثائراً كعادته ، يعالج عدة مسائل فى الحب والنساء محللا ذلك تحليلا علميـا . متفكها فى الحديث يحور الكلام إلى معـانى أخرى . وكانوا يكرعون كؤوس الشمپانيا التى هى من الضروريات لبوتيبى . وكان دائما منهمكا فى العمل لقد مضى ساعات فى القطرات هى أسعد أوقات حياته . لقد حضر حفلات إزاحة الستار عن تماثيل فى جميع مدن فرنسا . ولحق برئيس الجمهورية فى البلاد التى غمرها الفيضان . وحضر أفراح الطبقة العليا . وسمع محاضرات عمـا يصيب الكرم من الآفات . رأى كل شىء وهو أقل الناس رغبة فى الاستطلاع . ولم تكن تعجبه فى هذا العالم إلا بقعة واحدة . هى شاتو حيث يملك منزلا صغيرا وقاربا هما كل ثروته . ولم يكن من عمل إلا ويحتاجه .

وتحدث لونجمار عن مسيو هاڤيلان فذكر أخلاقه ، موته ،

والأشاعات الأخيرة عن تسممه عن طريق الدواء .

نحو الساعة العاشرة ، قال بوتيبي :

— أنني ذاهب إلى إدارة الجريدة ياعزيزى ، إنتظرنى برهة فى منتدى سُئيد . أنني مرتبط بموعد هناك

فى الساعة الحادية عشر كان الأثنان يدخنان أمام مائدة من الزنك فى ضوء الشارع وعلى نور مصابيحه .

قال بوتيبي : أنت ترى ياعزيزى أن مجذافا قصيراً ، يحسه الأنسان فى يده ، قد أحدب طرفه ، يخترق الماء كالمدية . . .

وهنا دنى منه غلام من غلمان الشوارع وقال :

— أن هذا لن يكون الليلة .

فأعطاه بوتيبه نقودا وصرفه ، وكأنه لم يرتاح الى هذا الخبر فتمتم بكلمات ثم شرح الأمر لصديقه .

— هـذا الغلام الذى يقطن الأزقـة ، يعرف كيف تجرى الأمور فى روكت . لقد جاء يخبرنى أن القاتل فى شارع شاتو - دى - رنتيير لن يعدم هذا المسـاء . وعلى ذكر هذا بما أنك طبيب ، حدثنى قليلا عما إذا هناك ألم بعد فصل العنق ؟

فأجاب لونجهار !

— لاشيء أسهل من أن أشرح لك ذلك .

وابتدأ في شروحاته :

— الحياة كائن كمي ، كما قال بوفون [١] ، تتأثر الزيادة أو النقصان . أما عقدة فلورين [٢] الحيويه فهي خطأ كبير . أصغ إلى جيدا . . . إذا أمكنني أن أقول مع بيشا [٣] ان الحياة هي مجموع قوى تقاوم عند الموت ، يجب أن أزيد أن هته القوى تقاوم أكثر أو أقل وقتا طويلا في القضاء الاخير . ويُنتج فصل الرأس حالة جديدة قوية وتلغي الحاسية بصفة نهائية ولكن الحياة العضيلة تستمر . يجب ألا نخلط . . . .

— لا . لا . أفضل أن أحذرك . سيطول شرحك وأنا لم أفهم شيئا البته . ومن جهة أخرى . فأن العلم يبدو لي مبهما . هناك بعض مسائل ، مثل هذه التي تتعلق بخلود النفس ، مثلا ،

---

(١) عالم طبيعي وكاتب فرنسي مجيد من القرن الثامن عشر ، ولد في مونتبارد ، ومؤلف كتاب التاريخ الطبيعي (١٧٥٧ — ١٧٨٨)

(٢) باحث كبير في علم النفس ولد في موريلهان (١٧٩٤ — ١٨٦٧)

(٣) طبيب فرنسي شهير وحجة في علم التشريح ولد في تواريت وهو مؤلف « التشريح العام » (١٧٧١ — ١٨٠٢)

ومثل هذه التى تتعلق بوجود الأله ، اللتان هما من الصعوبة بمكان ! . . . للسرور أن الأله لم يجىء ذكره الآن . وعلى ذكر ذلك ؟ ما رأيك فى وفاة الأنكليزى الذى دفنته اليوم ؟ يجب أن نردد هذا الصوت ، على شريطة التنميق قليلا . ماذا تقول فى ذلك ؟

٩

لما أن أمرْ جرول امرأته أن تعد له حقيبته . أسر اليها أنه راحل إلى أفرانش حيث يباشر بعض الاعمال . وقد ورث حقلا صغيرا فى مكان مجاور. ونزل فى فندق فى ضاحية ، أقيم على بابه تمثال للحصان الاحمر . وكان ُيرى فى الضياع ، يصب من القنينات ، التى يحملها ، العرق فى أكواب القهوة ، وذلك جرية على العادة الشائعة فى هاته البلد . وكان مرحا ، يتكلم بحزم ، وظهر بمظهر الأدب .

وفى يوم الأربعاء استقل القطار إلى جرانفى عند ما ولى النهار ، فى وقت مخيف ، هبت العاصفة ، كما يقول البحريون ، وأمطرت السماء ، وهبت ريح عاتية اقتلعت المصابيح التى سمع دويها وهى تكسر فى الطرقات . أخذ يتخبط نحو القرية القديمة وعطف إلى شارع ضيق ، معوج ، مرتفع ، انتشرت فيه رائحة ماء المد . وكان ُيسمع لقدمه الأيسر ، حينما يرفعها ليتبع بها الأخرى ، صوت المنجل فى الحنطة ، كما أن جسمه ينحنى إلى الأمام مع كل خطوة . أسرع الخطى فى الظلام الدامس ، و كان

يدفق الماء من تحت قدميه وهو يدمدم ويتوعد . دخل حانوت تعس لبقال . وقد ظهرت فى زجاج الواجهة الصغيرة مرطبان للحلوى . ووضع فى الداخل مضجع ذا كلة مصنوعة من القطن الاحمر . أما الأرض التى عليها البناء فهى غاصة أجزائها بالماء . وعليها آثار نعال حديدية مقواة بالحديد . لم ير أحدا ، وبدون انتظار البقال ، اجتاز الحانوت ، الذى كان المدخل الوحيد للمنزل .

صعد الدرج وقرع باب الطابق الثانى ، فخرج شيخ صغير يدانى ذقنه بشمعة . وامتحن الزائر ، من الباب المفتوح إلى نصفه ثم أدخله فى غرفة مكتظة بحزم الأوراق الممزقة ، وسجلات ممزقة الجوانب ، وأوراق مقواة مثقوبة عليها طوابع قديمة . ولا شك أن هناك خلف حزم الورق تلك ، سباق من الفيران . فقد كان يسمع من آن لآخر حركات صغيرة ، وأصوات غريبة صادرة من أنحاء الغرفة تكمل أصوات العاصفة والمطر المتساقط على السطح .

فى زاوية مظلمة ، مضجع وهنان غير وثيق الأوصال . تخيم على أنحائه العارية سحب التعاسة . كما خيمت سحب الثرى على

ما هناك من أشياء فأكسبتها لوناً جديداً . وقد بدا وجه رب المنزل أغبر كلون المضجع . لم يكن فمه لينطوى على أسنان البتة . ولسانه لا ينى عن الذهاب والمجىء بين شفتيه الطريتين . ونظرة إلى عيونه ذات الزرقة الماسخة ، نراه يحلم، فى خفة ، فى هاته الفيران التى تذكره بصوتها خلف الحائط . قال جرول وهو يجلس :

— آه حسنا . تريد أن تحدثنى ؟ ؛ هل من جديد ؟

مر الآخر بلسانه على لثتيه متمهلا وقال بصوت أخنف . يطيل فى نبراته :

— أننى لسعيد جداً برؤياك ، سيدى العزيز جرول ، هناك جديد إذا أراد الانسان وليس هناك إذا أراد . هذا تبعاً للارادة.

فى أثناء حديثه مر بيده على لحيته الشهباء وبدا كمن يعد كلماته على شعور ذقنه . قاطعه جرول بزمجرة مفرغة للصبر . قال الآخر:

— آه . يا ألهى ! كم تتضايق . من الحق أيضاً أننى أدعى تانكريد ريلين ، وأنك تدعى ديزيرى جرول ، أننى أقف نفسى على خدمتك . إن الأب ريلين معروف فى كل الأنحاء من كارول

إلى حيث يصاد السمك فى بريها. الكبار كالصغار، يستشيرونى .
إننى أقوم بأعمال كل هؤلاء السادة. وليس أمس ببعيد، لقد جدد مسيو دى تانكارفى ثقته بى. آه! سيدى العزيز! تلك هى ثقة كادت تُفقد! قال لى مسيو دى تانكارفى، ما نصه: « ريلين، أريد أن أشعل معك غليونى » ثم هاك ماحدث فى الاسبوع الماضى، فان البارونة دوبسك — مارينشى . . .

هوى جرول على المائدة بقبضته مقاطعاً . فصمت ريلين دقيقة . ثم عاد بصوته الطويل الناخر .

— هلم إلى أعمالك إذا سمحت . أننى أنتظر أمرك . لقد أحضرت لك ورقة ميلاد صامويل أوار وأوراقا أخرى تثبت شخصية هذا الرجل . ولقد مرت هاته الأوراق من يد إلى أخرى . ياسيدى العزيز، دون أن يضر ذلك بالفائدة التى تريد أن تجنيها . أننى لم أعمل ذلك إلا لمصلحتك .

قال جرول وهو يقطب حاجبيه : وبعد ذلك .

أجاب النورمندى : — إنتظر قليلا ، انتظر .

ثم بلل شفتيه وقال : — لا أريد أن أبحث ما هى مصلحتك فى الحصول على أوراق صامويل أوار ، أننى حازم . أن الحزم هو

من فضائل عملى الصغير ، ولكن هب أن صامويل أوار قد مات.

فصاح جرول: وربك ! إذا كان قد ذهب فلن يعود . ثم أغرق فى الضحك . قال الشيخ وهو يتأمل فى الدبابيس المعلقة فى كم ثيابه :

— انتظر ، انتظر ، لنفرض أن شخصاً يحرز وثيقة رسمية مسجلة عند وفاته ، وثيقة وفاة صامويل أوار ، المتوفى فى چرسى دون أن يترك نسلا . وأن هذا الذى يملك الوثيقة استعملها فى الوقت الملائم .

فتح جرول يديه المخيفتين وقد بلغت الروح التراقى من هذا العجوز الثرثار شريكه فى الجريمة الذى يريد الآن أن يدخل إليه بأن الأوراق التى حصل عليها بثمن باهظ لا تجدى شيئاً . قال بغلظة .

— لا داعى لهذا الدهاء والغش .

اضطربت مقلتا الرجل الطيب بقلق . ولكن كان صوته هادئاً حينما عاد الى حديثه :

— كل ما قلته لك ليس إلا لخدمتك . ولكنى أرى أنى على النقيض منك . لنطرح ذلك بعيداً ولنبق أصدقاء طيبين .

وقف ثم ذهب إلى حيث مكتب نعس من خشب الجوز فتناول من عليه أبريق ماء فيه حزمة من الأزهار . قال وهو يضعه على المنضدة :

— انظر . ستكون فى حوزتى لكل الفصول . كلما مررت بكارنيرى هناك ، فى الطريق العام ، أجمع بعضا من هاته الأزهار من الحفريات التى تحد أملاك السيد دى ليجل . فأحزم باقة وألفها بمنديلى .

مر بيده ـ متمهلا ـ على الأزهار الزرقاء كيما تسقط المياه العالقة بها . أضاف :

— وما دام الانسان يجتثها من جذورها . فليتأكد من أن هاته النباتات تعيش فى الماء كما لو كانت فى الأرض . آه ! يا إلهى ! ليس لى لا امرأة ولا ولد ، لا كلب ولا هرة ، يجب أن أتعلق بأى شىء : أننى أحب الزهور .

لم يكن جرول ليسمعه . عض شفتيه وضغط على عظم أصابعه . قفز فجأة وصاح : ـ أنك تملك وثيقة وفاة صامويل أوار . اعطنى إياها ، انها تلزمنى ، أريدها !

ألقى ريلين نظرة فجائية على منضدة الخشب الجوزى .

ورفع إبريق الأزهار برشاقة ووضعه فى مكانه ثم جلس وبل شفتيه . قال :

انتظر . كن حليما . إننى أملك هاته الوثيقة ولا أملكها . ومن الجائز ان أستعملها وقد أهملها ولا افكر فيها . ولكن لنتناقش بزعم أننى حصلت عليها . لقد علمت اخيراً ان مسيو هافيلان - الذى تلحق بخدمته منذ اعوام كثيرة ، أليس ذلك حقا ؟ - يبحث عن نفس هذا الصمويل أوار . ومن الطبيعى أننى افكر فى خدمته يا سيدى العزيز . وسيمتلىء غبطة بالحصول على معلومات خاصة بهذا المسكين صامويل ، الذى توفى بائسا فى جرسى .

نظر ريلين إلى صاحبه ليرى مبلغ اقتناعه ولكن جرول أجاب بهدوء :

— إذا أردت ان تبعث بالورقة إلى سيدى فاعلم أن المنون قد اغتالته فى هذه الساعة .

لعق رجل الأعمال وجنته اليسرى بلسانه وحملق بعينيه الزرقاويتين فى الخادم مرسلا نظره الحاد . فى حين نظر جرول إليه بمكر ودهاء . قال :

ـــ يا للسيد المسكين هاڤيلان ! هذا هو مصابنا ! ولكن هل أنت واثق يا سيدى الطبيب ، من موت سيدك ! هناك إذا ! يا لليسوع ! أمراض يمكن أن تعرف نهايتها من البداية . واأسفاه ! يجب أن نعود إلى عملنا . أن مسيو هاڤيلان قد ترك ورثة كم سيكون سرورهم عظيما حينما يعلمون ما آل إليه المرحوم صامويل أوار . ليست عندى إلا رغبة واحدة ، يا سيدى الطبيب ، تلك هى أطاعة كل شخص .

عاد جرول إلى هدوئه وهو يبتسم مكراً . .

ـــ ولكن ورثة هاڤيلان لن يعطونك صولديين نظير ورقتك التافهة . ستكون أبلها إذا أرسلتها لهم . . . أى فائدة تجنيها من ذلك ؟ إعطنى إياها وسأدفع لك مبلغاً ، بعد وقت ما .

ـــ مهلا ، قص على عملك الصغير . إن الرجل الطبيب ريلين يتمتع بعقل راجح . وحينما أعلم ما سيعود عليك ، أُسدى اليك النصح .

ـــ ليس لدى ما أقصه عليك .

آه . ألمى . إننى أعرف ما هنا لك . أنك جبان ولكنى سأساعدك . إن لصامويل أوار مكافأة صغيرة عند هذا المسكين

مسيو هاڤيلان ، وقد جاء ذكرها فى الوصية . فأذا حصلنا على بعض ورقات تثبت شخصـية المتوفى . يمكنك أن تأتى بشاب قوى الأرادة ، وينتحل لنفسه شخصية صامويل . بعد أن تعده بمكافأة حسنة . فيذهب إلى وريث مسيو هاڤيلان ، ويحصل على المبلغ المخصص له . آه يا إلهى ! لا تعارض ! لا يجب ترك المال مدفونا ، وهذا المسكين صامويل قد فقد الحياة ولم يتذوق خبزه . ولـكن ، يا سيدى العزيز جرول ، من الذى سيمثل دور صامويل . وإذا استولى على كل شيء لنفسه ؟ فقديكون غادراً . وينغص عليك . يجب أن تفـكر فى كل شيء . إن هذا العالم السـافل ملىء بالخيانة والغدر ! حذار ! إننى لا أبغى شيئا غير سعادتك .

مر الرجل بطرف لسانه الجلدى بين شفتيه وأتم :

ـــ أُحذرك . الرجل الفطن يساوى اثنين . إننى أعرف هذا الشخص الذى يملك قسـيمة وفاة صامويل أوار . هذا الشخص ليس بتركى أو يهودى . إنه لايريد بك شراً فهو أعقل من ذلك . وقد أذنى أن أبلغك إرادته : تحصل على نصيب صامويل أوار ، فى الوصية ، وعند ما تحصل عليه ، أعطى لهذا

الشخص جزءاً معقولا بواسطتى ، ليس هذا معناه أن تعطيه النصف . لا . . . هذا سيكون كثيرا ، يجب ألا نضايقك . . ولكن ، كما قال ، جائزة بمعدل خمسين فى المائة.. فى نظير ألا يذيع هذا الشخص سر المسألة باستعماله الوثيقة التى يحرزها ، الأمر الذى يغضبك و يسبب لى أشد الألم .

كان جرول منزويا فى الظلام طوال هذا الحديث ثم قفز إلى الرجل وقبض على عنقه صائحا :

— اعطنى الوثيقة . أيها الشيخ اليهودى . و إلا خنقتك .

لقد كان يخشى أن تصادفه عقبة لم يحسب حسابها .

بدى ريلين ، الأصفر الهزيل ، كأنه فى النزع ، جمد وقاوم بعضلاته بمرونة رجل ذى خبرة على العراك مع البحارة الذين يرهنون عنده ساعاتهم ليشربوا الخمر . زادت هاته المقاومة من خوف جرول ، الذى انصبغ بلون احمر وأخرج مديته الرديئة ، ذات النصل المدبب ،

وهنا زلق الشيخ كيما يطلق لنفسه الحرية ، فوقع أمام زاوية المدخنة ، الأمر الذى سبب له جرحا فى جبهته . وقع جرول معه دون أن يتركه . ورأى خدش غريمه ، ثم الدم الذى سال

غزيرا ، هذا الدم وتلك الجراح سببت له الوهل . وبحركة عضلية ، أغمد السكين فى صدر الشيخ . . ثم ، بعد دقيقة ، بدت له طويلة الأمد ، لم يلاحظ شيئاً .

تمدد الرجل فوق يده ، لم يزل جاحظا عينيه الزرقاوين ، فاغراً فاه . يقاوم بكل عضلاته : ثم ، بعد هاته الدقيقة الأخيرة ، أقفل يداه وفتحها كمن يمسك بشىء . ولم يبد أكثر من هذا .

إذاً رقد الرجل رقاده الأخير وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة الماكر . كسر جرول بمديته قفل المكتب الجوزى وصار ينبشه و يرمى بأوراقه . قاربت الشمعة الانتهاء وهى ترقص . وأخذت الفيران تقرض الأرضية . وسط هذا السكون . نبش حزم الورق ، والمظاريف ، رمى بكل الأوراق فوق الجثة الهامدة . وفجأة أنيرت الغرفة بلهب عظيم . فقد سقطت ورقة على الشمعة ، فأشعلتها . استمر ينبش الخطابات ، الورق المقوى ، الأوراق القديمة ، الحقائب الجلدية ، ومحافظ الورق . أخيرا ، وجد ورقة مختومة فوضعها فى جيبه وقد تنفس الصعداء . أطفأ الشمعة التى كانت تدخن وقد هب على وجهه لهيبها فحرق جفونه قبل أن يتمكن من إخماد لهيبها . ثم أخذ قبعته وخرج .

أنصت لحظة فى الخارج ، ثم صعد على درج الهرى ، ونظر على نور السماء فى الشارع . رأى ، على مدى النور المرسل على الطريق المبلل ، أن حانوت البقال لم يكن مقفلا فاختفى خلف الصناديق الفارغة وانتظر طويلا وقد علا صوت الخنازير ، وشخير النائمين ، ودقات الساعات . . أخيراً . . لما أن وثق من ان المنزل والشارع فى هدوء تام ، تسلق حبلا ، كان البقال يستعمله لأصعاد بضائعه إلى الهرى ، ونزل إلى الشارع فى خفة القرد .

١٠

نقهت هيلين ولا يشغلها إلا فكرة واحدة ! الاستحواذ على رينيه والحرص من أن يفلت منها . تريد ألا يبرحها ظله . تحس إلى جانبه الطمأنينة والقوة . فلقد زعمت أنها إذا ماجمعتهما غرفة واحدة ، لن تشعر بهذا الخوف والفزع اللذان يعترياها . إذاً فلتتزوجه وتعيش فى سعادة بين زوجها ووالدها . وكل ماضيها البرىء حافل بذكرى هذين الرجلين . ! لا إن العقل الشرير لن يوحى إليها بكل هذا الحب .

ولم تدر شيئا من الاشاعات الدائرة حولها فى الحى .

ونظرة إلى وصية مسيو هافيلان ، التى قرأها الوصى على الورثة ، نجد أنها خالية من التعقيد والابهام . فقد ترك المتوفى استثمار ممتلكاته لهيلين هافيلان الملقبة بفلبير ، ثم تؤول هاته الممتلكات بعد وفاة المستثمرة إلى جورج هافيلان أو إلى ورثائه المباشرين ، إذا خلف ورثاء . أما جرول فقد ربط له مرتبا سنويا ألف ومائتى فرنك . وأوصى صاحب الوصية أن تكون إدارة ثروة جورج هافيلان القاصر التى كان يديرها هو

فى يد صديقه الشيخ م. شارل سيمبسون المالى الباريسى. ولكن حالت الظروف دون إرادته هذه، فقد أصيب بكسر فى العظام من جراء كبوة جواد ولم يتمكن من قبول المهمة التى أناطها به صديقه المتوفى. وعلم مسيو فيلير بهذا المشكل فظن أنه يمكن أن يحل محل مسيو سيمبسون.

وأخذ يظهر عطفه على ثروة القاصر وملأ الأوساط المختلفة حديثا عنها. حتى أنه قال يوما، وكان ذلك بعد الغداء، حينما أحضروا له الكونياك، ولفائف التبغ: أننى أشعر بالعطف على هذا الناشىء، ويشغلنى أمره كما لو كان ابنى. أشعر نحوه بعاطفة الأبوية.

وبعد أن وضع قطعة من السكر فى القهوة عاد إلى حديثه:

— لا أعرف ماذا كان ينبغى أن أفعله نحو هذا الأبن.

تأمل قطعة من السكر وهى تذوب فى الفنجان وابتسم بحزن لهذا الاختفاء، كما لو كان يراعى أمله، وقد لاح له أنه من الضرورى أن يكون وصيا على جورج هافيلان ثم شرب ما تكون من قطعة السكر وعاوده الأبتسام.

أمعنت هيلين النظر إلى والدها بقلق وقد تنبأت بما سيقوله

لها. جرع كأسا من الكونياك وقال:

— هذا المسكين سيمبسون كبا به الجواد بحالة يرثى لها ولعمرى هذا شيء يؤسف له فمنذ مدة قصيرة كان قويا يمتلىء نشاطا. وها هو يصير معتوها... حينما قلت أنه نشيط، كنت مبالغا فهو لم يتعود قط على إدارة الأعمال الكبيرة، هذا رجل جبان، يخشى المخاطرة.

وأشعل مسيو هافيلان لفافة التبغ. لقد خاطر! صمتت هيلين وهى تحدق بوالديها الذى يدخن فى سكون مرتديا ثيابه السوداء. يبدو فى تدخينه بطلا وسط السحب. وتجلت فيه عبقرية الماليين. عاد إلى حديثه:

— هذا السيمبسون كان لينا، متساهلا، وأنا أتساءل عن مبلغ عطفه الأبوى على چورج.

ثم، وقد انتهى من مقدماته، أخذ فى طلب ما يريد.

أملى عليها خطابا إلى أفراد العائلة تنتخبه فيه وصيا على چورج هافيلان. رفع رأسه وشار ببنانه نحو الورقة قائلا:

— أكتبى، يا إبنتى، أكتبى:

«وأننى لواثقة من أن هذا الانتخاب كان يحوز قبول زوجى ..»

وجمت إزاء هذه الأكذوبة الفاضحة ، والاختلاق الغريب . ولكن ، قد جحظت عيناها نحو أبيها ، رأت وجهه المحترم وهدوءه . الأمر الذى جعلها تكتب ما يمليه عليها . وأخذ هو يفرغ عبارات الحنان الأبوى فى أحسن قالب . وذهب ليضع الخطاب فى صندوق البريد . فى حين جلست هيلين وهى خجلة هلعة لأنها خدعت زوجها المائت . . أنها تفكر : لو عاد ! . . فلقد تخيلت رؤياه . واقشعر بدنها . وارتعدت فرائصها لهذه الفكرة . ونم وجهها عما تنوء به من تفكير . أنها تعلم حق العلم أنها لن تراه إلا فى الخيال ولكنها لا تستطيع أن تبعد شبحه عنها .

***

لم يغمض لمسيو فيلير جفن طوال مساءه . أنه يفكر فيما فعله اليوم . عاد إلى مضجعه وهو يقرع الكوب والدورق الموضوعان بغليونه . فى حين كنت ترى عويناته جانبا الى الشمعدان على المنضدة المصنوعة من خشب الأكاجو . وقد شغل فكره بالثروة المقبلة ، ثروة هذا الصبي الذى سيصير تحت وصايته . ليس هذا فقط . فأنه يأمل ان يجد ابنته سهلة القياد . وهنا ينفذ مشروعه الخطير ، أمنيته ، وحلمه الوحيد . سيبعث هذا المشروع

من مرقده ، فيؤنس : شركة الرهونات . ولن تمتنع الحكومة عن السماح بتأسيس شركة لها ضمان كاف . أن قائمة أعضاء مجلس الادارة ، تحوى اشخاصا ذو اوسمة وألقاب ، الأمر الذى يكسب الشركة ثقة تامة . فى هذه اللحظة السعيدة ، لحظة سما فكره إلى عالم وارف من الظلال ، رأى مسيو فيلير شبحاً مخيفاً يمر بين أستار مضجعه . . هذا هو شبح شركة العنقاء .

شعر بالعرق البارد على جبهته ، وتحت رداءه المصنوع فى مدراس ، ولكنه أزاح عنه هذه السحابة المخيفة . تأمل من جديد فى مشروعه . تخيل لشركته رمزاً ساميا : يدان فى أكمام من النسيج الأبيض الشفاف . وأمسكت احداهما بالأخرى وارتأى ان يطبع هذا الرمز على النشرات والأوراق الخاصة به وعلى الخطابات ، والتحاويل ، والسندات ، والتعهدات ، الصكوك ، وينحت على الحجر فى واجهة العمارة التى تشغلها الشركة الجديدة بجوار الأوبرا . سوف يبتاع قطعة أرض فى هذا الحى المتوسط ويقيم عليها بناء فخما لهذه الشركة .

تنفس الصباح ، ولاحت الأنوار الأولى بين ستائر النافذة ومسيو فيلير غارق فى مشروعة يحلم فى الأثاث ومايعوز الشركة من منقولات .

١١

فى اليوم التالى لهذا الذى تناول فيه لونجمار وصديقه الغذاء عند بريڤا . جلس الأول فى مقهى يتناول أفطاره ويطالع جريدة . فوقع نظره على عامود من الأخبار بعنوان « النظارة » لم يوقع كاتبه باسمه الصحيح . وقد عرف أن كاتبها هو بوتييه . قطب حواجبه حينما قرأ الآتى :

« لقد قضى عظيم من عظماء الأجانب ، وهوى نجم . ساطع ، وتمت أنفاس مسيو هاڤيلان الذى شيعت أمس جنازته ، وقد ترك فى منزله المملوء بالتحف والنفائس ، فى شارع لاتو - موبورج بمجموعة قيمة فريدة ، تحوى بضعة آلاف من الزجاجات الملآى بالمياه من جميع البحار والأنهار والينابيع والشلالات فى العالم . وكان مسيو هاڤيلان شهيرا بخيراته أكثر من شهرته بمجموعاته ، وأن موته ، الذى ستكون له رنة أسف عميقة من كل فقراء حى الأنفاليد ، يبدو أنه ناشىء عن خطأ غير مقصود فى تركيب الدواء الذى كان يستعمله لمعالجة روماتزم أصابه . وهذا هو رأى أمراء الفن . ونحن جد سعداء بما لدينا من المعلومات

التى استقيناها من مصادرها الوثيقة بحيث يمكننا أن ندل على الأسباب الحقيقية لهذه الفاجعة الأليمة ».

أغاظته العبارة الأخيرة وأهاجته سطورها . وقد صمم على أن يقطع وجه صديقه بسياطه . وصاح حانقا « لاأعرف اين يجثم هذا القرد » وانطلق يبحث عن إدارة الصحيفة . وقد قابله فى الفناء الذى نصب على مدخله تمثال برنزى لعصفور وآخر من الرخام الأحمر على هيئة حمامة . الأول فوق صندوق الخطابات. والآخر فوق هذا الذى لصور المراسلات . وكان المخبر يستعد للخروج وهو يفتح مظلته ليتقى المطر الذى يهطل فى الخارج . وقد أمسك هذا بذراع لونجمار وقد عادت به الذاكرة إلى يوم سرق منه بوتييه أجوبة الامتحان من درجه لكى ينقلها بدوره . فأخذه شىء من الحنان . ابتسم بوتييه لرؤياه وصاح به :

— ياعزيزى : اننى أدعوك لتناول العشاء معى هذا المساء عند بريفا ، أننى ذاهب لحديث مع الحاخام الأكبر . وقف لونجمار فى طريق صديقه واضعا الجريدة الممزقة تحت أنفه وقال:

— ماذا تعنى بالعبارة الأخيرة من مقالك ؟ من ، كما تقول أعطى معلومات عن هذا الحادث ؟ ما هى شبهتك ؟ ومن تشتبه فيه ؟ أجب . .

أدار بو تييه عيناه إلى لونجمار والصحيفة . ثم أجاب بسذاجة :

— سأقول لك يا صديقي القديم . لقد فعلت هذا كيما أردد الصوت . . أردد الأشاعة الدائرة . . هذا كل ما هنالك . وكما أنك تأثرت بها . . فيجب أن تنتبه جيداً ! لقد هاجمت ولم أذكر أحداً . وسوف يتردد هذا الصوت ، ويرن صداه فى هلدر(١) هذا المساء .

تركه لونجمار بعد أن هز منكبيه ، إن أعصابه لمتأثرة جد التأثر . وقد تنازعته عوامل مختلفة وصدمته الحوادث تباعا ، وأصابت منه العواطف . ان مما لا يقبل الشك أنه أحب هيلين ، وأن هذا الحب سبب له متاعب هائلة . وتحت هته المؤثرات ، ينتهى فى أسبوع من كتابة مقالة للجريدة الطبية وألف قصيدته الأولى . واتصل فجأة ببائعة زهور فى مرقص عام أنفق عليها فى ثمانية أيام مرتب اربعة شهور .

أخيراً بدى له أن المقالة والقصة وبائعة الزهور . شيء تافه ممل . وقضى أسبوعا أيضا بعد ذلك فى حالة ضجر ومضى فى

---

(١) ميناء حربية فى شمال هولاندة — على بحر الشمال . والمؤلف يعنى بذلك أن الاشاعة سوف تملأ العالم .

يوم صحو إلى منزل شارع لاتو ـ موبور حيث أمكنه ـ بعد كل هذا الوقت المنصرم ـ أن يقدم إلى الأرمل تعازيه الحارة .

حينما اجتاز الفناء ورأى المدخل بدا له أن قد مر قرن لم يره فيه وكان تعبا كما لو كان قد عاش حقب عديدة ، وأعصر مديدة .

انتظر هيلين بضعة دقائق فى ردهة الاستقبال . حينما بدت أمامه فى ثيابها السوداء ، تخيل أن هذه هى المرة الأولى لرؤيته لها . وليس هذا إلا لأنها قد تبدلت تماما . فمنذ أن نقهت وقد بدن جسمها وأشربت ديباجتها حمرة قانية . وقد تخيل وهو يراها أنها قد لبست ثوبا جديدا . وابتسمت عيناها تحت شعرها المرسل على جبهتها . ابتدأت هى الحديث . فكان اللاشىء الذى قالته داعيا لاهتياج شعوره . وكانت هى أقدر منه على ضبط شعورها . حدثته عن تذكارات الوفاة الأخيرة وما إلى ذلك من آلام وشجون . ثم انتقلت إلى التحدث عن المستقبل .

حدثته أنها لا تحب العالم . وسألته عن مشروعاته . فهو يريد أن يجرب زبائن المدن ، فيحترف الطب فيها ، وسيمده والده باللازم . فوافقته على ذلك قائلة أنها ذات اصدقاء فى سان

جام ونوبي يمكنهم أن يساعدوا الدكتور الشاب ويكونوا عملائه . ووعدته أن تشرف على عمله . وتهتم لمستقبله . أما بالنسبة لها فقد قالت أنها لا تعرف ماذا ستفعل . أضافت باختلاق لطيف ان الثروة التى ترك لها مسيو هاڤيلان استثمارها ، والتى خصص جزء كبير منها للخيرات ، ليست بذات أهمية لها .

أضافت : « إذا صرت امرأة فقيرة . هل تبتعد عنى ، وتنفر منى ؟ وهنا دل على ذوق سليم بعدم إجابته . لم يتحدثا بكلمة عن الحب . ولم يخطر لأنفاسه أن تضم أنفاسها . أن يتنفسون بجهد ، وهم سابحون فى عالم لذيذ . عالم الحب الذى يشعر كل منهما به . قالت أنها تشعر بالحر . أخذ يدها وضغط عليها بعد مجهود منه ولم تستعيدها منه . لم يعرفا ما يفعلان وإن هما ليريدان الموت سويا ، أوقظ الضمير هيلين . فسحبت يدها ومرت سحابة غيم على جبهتها . فكرت قليلا وقالت :

— هناك أعمال قد فعلتها ولن أزيد عليها .

عقب هذا القول ، الذى أذكى فى نفسها دفين ذكرياتها ، أدار رينيه رأسه وقد انحدرت دموعه على وجنتيه . فى دورته أخذت يده . وطرقت آذانهم صوت أقدام فى الردهة . قالت :

« حبيبي ، حبيبي ... » وبدون أن تتم ، سارت قليلا وجلست على أحد المقاعد .

دخل مسيو فيلير ، الذى أعلنت قدومه حركة حذاء .

وصافح الطبيب بحرارة . وقد تذكر ليالى شارع نيڤ - دى پتيت - شامپ . قال لرينيه :

— لقد ربيناك ، أنت أبننا . ومن الحق أنك رأيت عندى وجوه عديدة وأشكال جمة . لقد كانت بالنسبة لك مدرسة للملاحظة. والآن .. لقد قمت إذاً بسياحات . ورأيت أقطارا ، كحمامة لافونتين . آه ! البحر !

انطلق يتكلم عن أشعار المحيط بنشاط . ثم طلب أن يأذنوا له فى قراءة رسائله والرد عليها .

استوى أمام المنضدة. وقرأ أوراقا وهو يتذمر ويدمدم دلالة على تذمره وملله . وقد تراكمت أمامه أكوام الورق والصحف لذا فقد اقتصر على قراءة الهام منها

وأما هيلين ورينيه فقد كانا يتبادلان النظر فى سكون وهما يحلمان أنهما وحيدان .

أخيرا جر قلمه فوق بعض الأوراق ووقعها بخشونة مرسلا

أياها إلى البريد . واستنشق الهواء مالئا رئتيه . عاد إلى ملاطفته . أنه ولد طيبا ، فى شيء من السخرية . . إقترح أن يقوموا بنزهة خارج البلد ، فى الضواحى ، فى حين لم يبد احدا رايه ثم انها ليست برحلة سارة . ولما كان يجب ان يتناولوا غذاءهم فى الخارج فسيأكلوا بعض المقليات فى ميدون .

وسار الثلاثة إلى نزهتهم وهم يكونون عائلة واحدة . . .

فى ميدون السفلى ، ساروا وسط العشب على حافة الماء . رفعت هيلين ذراعيها برشاقة لتحمى قبعتها فكانت تلك الدقيقة من لحظات رينيه السعيدة . كان شعر المرأة الصغيرة مرسلا على جبهتها وقد لمعت عيناها من تحته ببريق عذب . وتبادل الأثنان النظرات العميقة البريئة الدالة على شعور كل نحو الآخر . تذكر مسيو فيلير أعماله . فطلب مدادا وورقا . ولم يحصل - بعد مشقة - إلا على ورقة قذرة . وقلم علاه الصدى ، فخط على ورقة زرقاء من ورق بات الأنكليزى بعض أرقام - ووضعها فى جيبه . ثم سأل بخشونة إذا كان صديقه الشاب لا يعرف أصحاب السفن فى تولون . قال هذا بلهجة تدل على أنه سوف ينتج فكرة عظيمة . الأمر الذى يعد محالا . . .

تناولوا غذاءهم . وعصر مسيو فيلير نصف ليمونة على غذائه المقلى . وقد فعل ذلك بظرف يتجلى فى يده الغليظة القصيرة المثقلة بالخواتم . تأمل الشابين من خلف عويناته ذات الأصداف . تطوى نظرته هذه شىء من الغبطة والبركة . وقد امتدت أمامهم فوق النهر ، مرعى للماشية . وسدت الأفق جزيرة طويلة بستر من شجر الحور . ومرت بعض قوارب فيها رجال شمروا عن سواعدهم يجدفون ، فى حين اتجهت انظارهم إلى النساء الأنيقات الواقفات أمامهم فى الجزيرة ، يناديهم ويضحكن لهم وبدى نور يخبو فوق البحر ، أشبه شىء بنور الحباحب ، ثم هطل الودق ، ورعدت السماء ، وهب نسيم لطيف وسط ، هذا الظلام الداجى . فخلع رينيه دثاره الأسود ووضعه حول منكبى هيلين أما مسيو فيلير فقد أخذ يتأمل جمال الطبيعة ، وقدرة صانعها . فأجابه لونجار أن الطبيعة إن هى إلا مسرح لمقتلة عظيمة دائمة . وأن مخلوقا لا يعيش فيها إلا للقتل . وهنا أجاب مسيو فيلير :

— أنك تذهب بعيدا جدا .

كان هؤلاء المتسربلين بالظلام ، يشعرون فى اجتماعهم بسعادة ، وقد كانوا سيظلوا هناك وقتا طويلا ، لوأن رجلا

الأعمال لم يفكر فى منتدى كلمار . فما أن تذكر أن وقت الذهاب للعب البليارد مع بعض التجار والوسطاء قد حان ، حتى قال وهو ينظر فى ساعته ، ويرمش بأهدابه الثقيلة :

— يا أبنائى . لقد حان ميعادى . أننى مرتبط بموعد هام جدا . ثم أنه لن يمكننا البقاء هنا لأنها تنذر المطر .

سكنت الرياح . وعدت بعض سحب عدوا مخيفا فى السماء وبدى قمر كامل . قد لبس حلة حمراء ، وكنت ترى الثلاثة يبحثون عن الممر الضيق الذى يصعد إلى ميدون العالية ، ويؤدى إلى المحطة . وسارت هيلين متكأة إلى ذراع رينيه ، وقد حبس أنفاسهم سكون الليل الرهيب وفجأة سرت إلى هيلين قشعريرة . قالت :

— أننى أشعر بخوف

بدى رجل فى أسمال بالية ، طويل القامة ، هزيل ، طالت أقدامه ، وما أن رفع قبعته القش ، حتى بدى وجه نحيل ، ذا عينين كبيرتان كدرتا اللون . مد يده وهو يتمتم نوع من الرجاء . ضغطت هيلين على رينيه وهمست :

— أرأيت ؟ أنه يشابه ... آه أننى أرتعب !.

أبدى رينيه قلقه . هذا المتسول يذكرهم بالسيد هاڤيلان . وقد تألموا لهيأته الفانية . وحركات الألم الذى يبديها ، وهى شبيهة بتلك التى أبداها من قبل مسيو هاڤيلان . إجتازا الطريق وقد تناثرت الأحجار تحت أقدامهم . وهيلين على اسوأ حال من الفزع . وجحظت عيناها نحو شىء فى الظلام . فى حين لم ير رينيه أمامها غير شغاف الأشجار تلتف حول صخرة كبيرة ولكن الأرمل كانت ترى شيئا آخر ، زاد رعبها فصاحت صيحة الخوف وسقطت إلى الخلف . فأراد مسيو فيلير ان يجلسها ولكن رينيه منعه من ذلك وتركها ممددة . لقد كانت فى حالة جمود . وشفتاه تتحركان وهى تزبد . وجحظت عيناها نحو السماء . ولما ان أفاقت لم تتذكر شيئا ، فهى تعبة منهوكة القوى وما أن وصلت إلى باب المنزل حتى طلبت من والدها ان يذهب لينام معها فى المنزل ذياك المساء . لأنها لا تزال جد خائفة . وشدت على يد رينيه بيدها الجليديه التى لا أثر للحياة فيها . ونظرت إليه فى وهن ويأس .

١٢

استمر خوف هيلين وهلعها واستولى عليها القلق والفزع فهى تخاف السكون وتفزع للجلبة . المنزل وغرفه ، الشارع وضوضائه ، كل هذا شيء مخيف . فى كل الطرقات كانت ترتجف هلعا .. إلى أن جاءت صديقتها القديمه ، ربيبة المدرسة ، سيسيل والتى تأهلت برجل ثرى . أتت فى حفل كبير لترى الأرمل . وقد سبب ابتسام الزائرة وغمزها ، عذاب هيلين . لقد قرأت سيسيل كلمة الصحفى التى لمح فيها من طرف خفى الى موت هاڤيلان ، فأذكت فيها حب الاستطلاع . قالت لها :

— ما أكثر هذيان هؤلاء الصحفيين . أنهم يتحدثون عن موت فقيدك يا عزيزتى المنكوبة ، ويغمزون من طرف خفى إلى أن الحادث ليس بطبيعى ، بل هناك سر قد كشفوا عنه .

أجابت هيلين بفزع :

— إننى لا أفهم منك شيئا . أؤكد لك . . .

ولكنها ارتبكت ولم تستطع المضى فى حديثها . فلقد بدأت بالدفاع عن نفسها كأنها متهمة بقتل زوجها !

بحثت عن هذا العدد وقرأته ، فأصابها الأرق المستمر .

في هذا الوقت ، كانت محكمة أفرانش مشغولة بجريمة القتل في منتصف الليل . إن ريلين وكيل الأعمال ذو السمعة السيئة ، وجد مقتولا في منزله . شارع جسفر في جرانفي . حصرت التهمة أولا في عامل بحري ، سكير معربد ، كان في زيارة ريلين الساعة الخامسة من مساء اليوم السابق لاكتشاف الجريمة . وقد رآه البقال ، الذي يسكن في الطابق الأول . وهو صاعد وعليه علامات الشر . ولكن التحقيق الطويل أسفر عن براءته فأطلق سراحه . وعادوا إلى البحث في منحى آخر . فامتحن المحقق ظروف الجريمة ، وذهب إلى منزل القتيل ، فعاين الأوراق المبعثرة بعيداً عن المكتب ، وقد استنتج انها نبشت بسرعة وألقيت على جثة القتيل . فكونت مجموعة كبيرة . ووضعت كل في مظروف ، تحمل اسما وعنوانا . وقد ترك الباقي منها حينما وجد بغيته . وحدث أن عثر المحقق على مظروف في آخر المجموعة ، وهو فارغ ، دليل على أن أحداً ما استولى على محتوياته . وعلى زاويته العبارة الآتية :

مسيو جرول ، عند مسيو هافيلان بباري .

فبحثوا عن اسم جرول فى جرانفى فلم يعثروا به . ولكنهم وجدوه فى افرانس ، فى سجل فندق الحصان الأحمر . وقد كان هناك حينما جاءه رجال الشرطة فقبضوا عليه .

علمت هيلين بهذا الخبر من الصحف . بعد ليلة قاسية ، رأت فيها شبحه فى حالة مفزعة ، كان أمامها ، دون أن يذكرها بشىء ، ودون أن يصبغ وجهه بأرجوان الحنق والازدراء . لقد أراها فقط صنيعته . وهو مرتدى فى ثوب دموى كيف تعيش إذا ، إذا عاد شبحه إليها كل ليلة ؟

جاء والدها وقت الغذاء فارتمت عليه بحنان وخوف وحدجته بعينيها وهى تهزه بعنف حتى انه اضطر ان يقول لها :

— ماذا عندك إذاً . أنك تسيئين إلى .

ثم حدثها انه كان دائما غير راض عن جرول . وها قد اكتشفت جريمة هذا التعس الذى اقشعر لها بدنه ، وقد طرأت عليه فكرة جديدة هى البحث عن صامويل أوار ، فكتب فى الصباح كتابا خاصا بهذا الموضوع إلى سفير فرنسا فى انكلترا ، وسيواصل أبحاثه . وفى أثناء ذلك بدت نظراته الحادة كما لو كانت ستخترق الطنف .

تألمت هيلين من سماع هته القصة التي تذكرها بما أوصاها به زوجها ، فقالت له :

— أبتاه ! ألا تقبل أن ترحل مع ابنتك بعيدا ، بعيدا جدا ؟

فسألها ببساطة : أين ؟

وقد بدى له أن فراق منتدى كلمار ضرب من أشد ضروب المحال . قبل جبهة أبنته وتمتم : أيتها الأبنة !

ثم ، بفكره المتساهل نحو الحياة وحنانه الأبوى ، وجد ضالته التي يستبقى بها الأرملة الشابة في پارى . فقال لها :

— إن صديقنا لونجمار لن يروق له سفرك .

ولكنها أجابت أن مسيو لونجمار لن يفكر بعد إلا في فتاة صغيرة مرحة ، ثم ضمت يداها في تضرع وصاحت بصوت محزون :

— ألهى ! ألهى ! أى شيء صارم هي الحياة .

أخذ يداها وعاد بصوته الغليظ .

— لمن تقولين يابنية !

بعد أن القى مسيو فيلير بمحفظته التعسة على المنضدة ابتدأ يدخن ، وهو يفكر في صامويل أوار الغائب .

ومن هذا اليوم ، ساء حال هيلين من الحزن والتفجع . ونالها من غصص الكرب وتباريح العذاب مانالها . وقدأحست بحاجتها إلى الاعتراف حتى يعتلى الحق الصراح .

٭٭٭

على أثر التحقيق مع جرول . طلب المحقق معاينة منزل المتهم وذهب مدير الشرطة يستأذن مادام هاڤيلان فى البحث عن بعض أوراق فى غرفة جرول القديمة ، التى كان يقطنها أيام أن كان يلحق بخدمتها . ثم طلب محادثتها .

رعدت فرائص هيلين لهذا الخبر . ورأت فى غرفتها ، زوجها مبلبل الخاطر ، ولكن فى هدوء وسرور . كان جالسا يتصفح مجلة . ثم اختفى شبحه من أمامها .. إذاً قد تبدل هلع هيلين بأنكى الآلام .

لقد تخيلت القضاء يقف منها موقف الاتهام . وجرول الخادم يفضى إليهم بمعلومات عنها . ان كل ماقرأته عن جرائم مارى انطوانيت تعاودها ذكراها . وتتخيل سيف القضاء يحز عنقها . ولقد ترى فى سيمائها أفظع آيات الرعب والوهل . تقلب مقلتها فى حجاجها كالمختبلة الممسوسة من فرط ذعرها . فى الساعة

العاشرة سمعت قرعا على الباب . فتحت النافذة كيما تقتل نفسها أو تنقذها ، وجاء چورج الذى عاد كعادته من الكلية . قذف بكتبه جلل على المنضدة . نظر إلى عمته . وقال لها :
أن عيناك كبيرتان اليوم .

فتح كتبه باستهتار ريثما يتم أعداد الغـذاء ، لعمل واجب يونانى . ثم جلس القرفصاء فى زاوية مقعد ، معتمدا بذقنه على المنضدة . وجعل يبحث فى قاموسه . ورغما عن استهتاره فقد ترجم ترجمة حسنة . وقد أحدث أثناء الكتابة بقعـا من الحبر مسحها بعد ذلك بلسانه .

كانت تصغى ببلادة الى ما يحدثه الصبي من قرقعة بحـذائه على مقعده . أخذ يقلد صوت مدرسه فرفع صوته .
— لاحظوا ياسادة ، ما تحويه أشعار سفوكليس من النظم الحسن . نحن لانعرف كيف كانوا يلقونها .. مسيو لا بروني ، ستصرف لى ذياك الفعل عشر مرات .
ثم قال الطفل بصوته الجهورى :

— هلا عرفت ياعمتى أن أستاذى يلبس ياقات من الورق . نحن نسـميه بيتون . أتعرفين لماذا ؟ ذات يوم ، قال لنا ، أيها

السادة ، لقد كان بيتون وحش غريب الخلقة ذا بشاعة كريهة . وهنا صاح أحدنا ويسمى لابروني «أنه مثلك» أنه شهير لابرونى قولى إذا ياعمتاه . أتعرفين أنك سيدة فائقة الجمال ؟

ثم اتجه بأفكاره إلى الترجمة اليونانية . فقد أخذ يقرأ الكلمة اليونانية وترجمتها بالفرنسية بصوت عال يملأ الغرفة . يشبه الطائر الغرد . وكان يقف أحيانا عن القراءة ليعد كرات اللعب الرصاصية الصغيرة . .

— ان الرأس الألهية لجوكاست قد قضت . . . ياللغباوة .. لقد ذهبت .. الى مضاجع العرس .. هذا معناه نحو غرفة النوم . لاحظوا .. ياسادة . أية اصطلاحات قيمة !. وأية موازنة !... مزقت شعرها ونادت الميت، أترين ياعمتى أن لائيس فى الفرنسيه هو الموعظة ، ولكن فى الأغريقيـة هو الرجل الطيب الذى تزوجته چوكاست ، وذاك الزواج لم ينجح .. « مزقت شعرها ، ونادت لائيس الميت . . . »

خرجت هيلين من تلك الترجمة من الأغريقية إلى الفرنسيه بقصه سامية لامرأة يائسة .

أما هو ، وقد تعب ، فأنه لقربه من النهاية ، أسرع :

— لقد رأينا المرأة المشنوقة ، وهنا ضغط بالقلم على الورقة فخرقها . وكشف عن لسان مغطى بالحبر . ثم أنشد :

— المشنوقة ! المشنوقة ! لقد انتهيت !

قامت هيلين وصعدت إلى غرفتها هادئة . فبدت فيها صورة واضحة للارادة .

التفت بوشاحها الأسود ونزلت من درج الخدم .

١٣

لما أن صارت فى الشارع . جهرت عيناها . فقد كان هذا الصباح رائقا ، وانتشرت الأنوار انتشارا غريبا . وقد أكسبت الأنوار الطبيعية جميع الأشياء أبهى الحلل وأجملها. هاته الأضواء سامت هيلين العذاب . وكانت لا تعى شيئاً مما تراه . كانت تنظر بذهول إلى الأشياء - كأرقام العربات وأسماء المتاجر ، وبدت لها مقلقة ، تنهك أعصابها المريضة . كل ما رأته تخيلته قد اخترق نفسها بوحشية وجرحها . سارت بعزيمة ماضية . فلقد خطرلها شىء بدا حسناً، فكرة تغلبت على ماعداها للتو واللحظة. سارت وهى لا تشعر بما ينالها من تعب . فقدتسلطت إرادتها الحديدية عليها . . ولاحظت أمامها فتاة تسير حاملة ولدا صغيرا وزجاجة من اللبن . ورأت هيلين القطرات البيضاء التى تسقط واحدة فأخرى إلى أحجار الأفريز . كل ما يشغلها هو هذا اللبن المراق . فكل قطرة مراقة كانت تسومها أنكى العذاب .

عند ما انتهت من الطريق ، بدا لها طريق آخر ، فترددت ثم اتجهت إلى اليمين وعاودت سيرها . كان حى أرزاى معطراً برائحة الحدائق . لقد ذهبت .. فى شارع پال عند قنطرة رويال .

و سد الطريق أمامها بزمرة من العمال ، عمال الترام ، والعربات .. اتجهت إلى القنطرة . دون أن تنظر إلى الماء . وسارت إلى اليمين حيث سارت بين مجاميع الصفصاف وممرات الحمامات . فدخلت قاربا مملوءاً برائحة الماء الساخن والقطران . ثم طلبت من العاملة أن تعد لها حماما . وانتظرت ، وهي تعض قبضة مظلتها . وكانت على أتم هدوء حينما دخلت حمامها وقالت أنها ستقرع الناقوس إذا ما أرادت رداء الحمام . حينما أقفلت الباب الصغير عليها، فتحت النافذة بحركة عنيفة ، وأسدلت الستائر. وتنفست بقوة.. وكانت تتأمل أمامها السين يحرك أمواجه الصغيرة الهادئة . . . بعض الغسالات في قاربهن عند الشاطئ الآخر، وكان طنين الناموس يرن في الهواء صاعداً من فتحات حمامات الرجال المزخرفة . . .

رأت هذه المناظر بغير اكتراث وبدت كأنها سعيدة . وكان منكبيها ملتفان بدثار من الكازمير الأسود ، وأرسل قناعها على قبعتها وحول رأسها كخيال الموتى وبدت أجمل منها في أي وقت آخر . وقويت عزيمتها . وثارت موجة خفيفة ما لبثت أن ازدادت . وقد كانت القوارب تخطر بخفة ، ومن أمامها قارب متجه إلى بون دي چور ، فسمعت أصوات راكبيه

يتحدثون عنها ، وهما شابان من العوام ، يدفعان بالقارب إلى القنطرة ، ينظران اليها متأملين ملاحتها . وقد لحظت منهما ذلك وسمعت أصغر الاثنين . ذا الديباجة المشربة حمرة ، يقول لزميله

— ما أجمل هذه المرأة ، وما أفتنها !!

ولكن سرعان ما مرّ القارب واختفى تحت قنطرة رويال . هل يوجب هذا الأزدراء أم السرور ؟ تحركت زوايا شفتاها وبدت ابتسامة . . كانت وديعة ، وهيأتها المترددة عذبة مطمئنة . رفعت ذراعيها الجميلين بدلال طالما أشقى رجال ومرت بأصابعها على جبهتها . ثم ، وقد اكتفت بما رأته أغلقت النافذة حينما كان الوقت ظهراً . فى الساعة الثانية لم تكن قد دقت الجرس بعد . ومرت عشر دقائق أخرى فدهشت الخادم من أن احداً لم يناديها وفتحت الباب وسألت عما إذا كانت السيدة ليست فى حاجة إلى شيء

ما من أحد فى الداخل ولكن أمامها شيء أسود معلق بين النافذة والمرآة . هرعت الفتاة تصيح فى طلب النجدة .

كانت هيلين هاڤيلان معلقة برباط الرقبة ـ رباط چورج التلميذ إلى حيث تعلق المعاطف . وقد لفت منكبيها بذاك الوشاح الذي أهداه لها رينيه فى ميدون . أما ركبتاها فهما مشدودتا

بصلابة . ومس طرف أعقابها الأرض . وغطت وجهها بنقاب رفعوه فكشف عن وجه منتفخ ، وتدلى لسانها من الفم وبدا أسود اللون منتفخا .. لقد انتحرت هيلين هاڤيلان لتتخلص من هذه الحياة التى تسومها العذاب . حياة مريرة لا طعم لها . ولقد كانت تتعذب من ضميرها الذى يوخزها ويؤنبها على مسلكها، وكانت تتخيل نفسها مجرمة آثمة . ملطخة اليد بدماء زوجها. ثم أنها من البداءة لم تكن مرتاحة إلى هذا الزواج. لأنها تحب ،وتحب من؟ تحب رينيه لونجمار الشاب الجاف الذى لم يقل لها يوما أنه يحبها ولم يبادلها عواطفها . أنها تعسة ، فى كل أطوار حياتها . لم تهنأ بحبها ولا بزواجها.. وهاهى تنتحر ، فتتخلص من هذه الحياة الثقيلة .

واختفى هذا الوجه النضير ، الذى عبس له الدهر . وارتاحت تلك النفس المعذبة فلن تقلقها بعد ذكرى زوجها ، ولن تضطرب لرؤية الحبيب . فقد آن لها أن تفارق الشجون والآلام وأن تودع العالم هادئة مطمئنة .

وقد صرح ضابط الشرطة الذى نودى به :

لقد رأيت كثيرا سيدات منتحرات . ولكن هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها سيدة مشنوقة .

١٤

سمع لونجمار نبأ تلك الفجيعة التى تفزع لها الصخور والرزية التى لا تعوض وكم هلع لها قلبه وكيف لا يهلع ، وتلك امرأة أحبها ورأى فيها مثله الأعلى ثم هو يفتقدها اليوم فلا يراها ولما يمض على اجتماعهما الأخير وقت كثير أحبها ولكن صدمه المال فحطم قلبه وتركه كسيرا بائسا وهو لم يزل فى المرحلة الأولى من حبه ، ثم زال هذا الشبح الذى نغص عليه حياته ، وترملت هيلين ، فكان يتعزى عما سلف برؤيتها والتحدث إليها . ولكنها كانت تتألم ، فيزيد مظهرها الحزين من شجونه وآلامه . وأخيرا هاهى تفارقه دون أن تترك له كلمة واحدة . فيا للمصيبة ، لقد اندرأ القضاء دفعة واحدة على هذا الشاب ، وحكمت الطبيعة عليه بأن يعيش حزينا بائسا كسير القلب ، بعد أن حكمت على حبيبته ومالكة فؤاده بأن تحيا حياة بائسة مريرة ، حكمت عليها باليأس القاتل ، أفقدتها قلبها وأملها وسعادتها حتى فضلت الانتحار ، فذهبت فى ريعان الشباب وخلفت بائسا محزونا ، يقذف جمرات الألحاظ المستعرة ويقلب مقلته فى حجاجه

كالمختبل الممسوس . ليس له من الأحساس والشعور لا قليل ولا كثير . لم يظهر من الخلال الحسنة غير إقدامه وجده فى التطبيب فقد كان يعمل فى تطبيب داء الكلب . وزاد نفوره وشجاره مع أترابه وغلى صدره بمراجل الحقد نحو النساء . فترك ثياب الظرف والملاطفة وأقام وحيدا . وبلغ من جزعه وفروغ صبره أنه لم يمكنه أن يتناول غذاء واحدا فى الملبن دون أن يتشاجر مع الخادم والعامل والفتاة الحاسبة . وفى مناقشة حادة مع رئيس المستشفى ، استقال من خدمة الجراحة الحربية . وفى يوم صحو جاء إلى والده ، فى أردين بغير كتب ولا أردية . وأنما بذقن ثلاثة أسابيع وهيأة العبوس . كان مفتش الطرقات السابق ، شيخ صغير يعمل فى قطع أشجاره ويعبىء أنبذته فى زجاجات . يعهد منزله ، يشق الأخشاب ، يذهب ويؤوب وقد أولى أشياء الحياة اهتمامه العظيم . هز منكبيه حينما رأى ابنه يتمدد فى الحديقة طوال يومه . وقد وضع غليونه فى فمه وقبعته تغطى رأسه حتى الأنف . قال له يوما بعد الغذاء ، انه يحس ورما فى ذراعه . ولا يؤلمه هذا ولكنه يشعر بالتضخم ثم سأله عما يجب ان يفعله . فأجاب رينيه

— لا شيء

ثم أدار عقبيه الى الرجل الطيب

كثيرا ما خاطر الشيخ ، ذى المعزقة فى يده ، قريبا من كومة التبن حيث يتمرغ ابنه .. قال له مرة :

— إذا كنت مريضا ، فلتذهب لتنام فى مضجعك . وإذا كنت تريد ان تغامر فى الحياة مرة ثانية فأننى مستعد ان اساعدك على مسلكك .

اعتاد رينيه ان يخرج بعد الغذاء . فيذهب قريبا الى حيث واد عميق ضيق ، وشواطىء نهر صغير . كل شىء يبدوغثا تافها . كان المه خاليا من الجمال والظرف . واقام بضعة اسابيع على هذا الحال .

ذات يوم بينما كان يتثاءب ببلادة على الشاطىء ، رأى أطفالا يقذفون الحصى فى الماء . بحركات رشيقة خرقاء . وقد كانت هاته المخلوقات الصغيرة ذات شعور صفراء ووجوه قد أشربت حمرة قانية وهى تضحك وتمرح ، يجعلون من الماء موجات خفيفة . يضحكون وسط تلك المناظر الخشنة . طرأت فجأة على لونجمار فكرة . ناداهم ، ولكنهم هربوا فتعلقوا بالأحجار الناتئة

فسقطوا إلى القاع الموحل . وغطسوا ولم يتقدموا . علق أحدهم بشق فى صخرة فوق النهر ظنها مختفية . وكم ارتعب حينما أتى إليه لونجمار وجذبه من جحره كالحية . لم تكن هيأته شريرة حتى أن الولد لم يخافه . قال له :

— هل تريد أن تصغى إلى ، أيها الوحش الصغير ، إذا كنت تريد أن تربح بعض النقود فاحمل إلى بعض الضفادع أنك تعرف كيف تصيدها ، وأحضرهم إلى مسكنى عند الأب لونجمار .

وإذا ما استحوذ على ضفادع ، قبع فى غرفته التى امتلأت برائحة الأدوية والتبغ . وكان والده يراقب فى سرور الضفادع المعلقة ، واضمر لولده أثناء عمله أحتراما : وعمل جهده على عدم إقلاقه حتى ليسير على أطراف أصابعه . وقد سأله يوما : ألا يمكنى أن أساعدك فى تحضير ضفادعك ؟ ألست فى حاجة مثلا لأن أنحت لك القوالب ؟ يمكنى أن أقوم بأعمال الطلاء وصب الرمل الرفيع .

— تلصق رمالا ناعمة فوق الأرض ! ولم هذا ؟

فشرح الأب ما كان يظنه وهو أن ابنه يحشى الضفادع

يجعل منها مجموعات فنية : قال :

— لقد رأيت فى پارى ، فى حوانيت الطبيعيين ، ضفادع محضرة باتقان . وقدعملوا مناظر لعراكها وجعلوا فى يد كل حساما صغيرا . ومناظر أخرى وهن يلعبن ويقفزون فى الماء الموضوع فى زجاجات . تلك مهارة فائقة . لقد ظننت ياولدى أنك تعمل فى شيء من ذلك .

وكم شعر بالخيبة حينما علم أن ابنه يعمل بعض تجارب . كان هذا فى نظره أعمالا خاصة بالطلبة . ومنذ ذلك طفح وجهه بالأسى . وقدتناول ضفادع معلقةعلى النافذةوهو يحرك رأسه أسفا.

ذات صباح أخبره ابنه انه راحل . فكان شجار بين الأثنين ومناقشات عنيفة انتهت بأن افترقا غاضبين

ولكن سريعا مابكى الوالد الشيخ عندما عاد إلى منزله . أما رينيه فأنه ما كاد يستلقى على المقعد فى الدرجة الثالثة حتى اخذ يجفف دمعه .

فى محطة ريم رأى شابين يلوح أنهما من موظفى المتاجر دخلا عربته كان أولهما يقرأ فى ألپتى چورنال . ويسمع تربا الأخبار الهامة .

— الأزمة الوزاريه مستمرة . . . حدث انفجار مقلق فى حى كيبو . . . أنفذ حكم الأعدام فى المدعو جرول (چوست ـ ديزيرى) الساعة السادسة من صباح اليوم . فى ميدان مارشى بجرانفى . . .

سأله الآخر :

— ماذا فعل ؟

— لقد قتل شيخا ، واتهم بدس السم لأحد الأنكليز الأثرياء ولكن هذه الجريمة الثانية لم تثبت للقضاء . ألا تذكر قضية جرول ؟ .

— كلا .

وبعد هنيهة من السكون . قال :

— هل هناك إيضاحات ؟

قرأ بصوت منخفض ! « منذ الرابعة صباحا: الآلة المهلكة . »

لم يصغ لونجمار للباقى . طوى القارىء صحيفته وقال :

— حتى الدقيقة الاخيرة أحتج بأنه لم يضرب المجنى عليه قصد قتله . هذا سيان . أنه شرير شهير . . . والآن فسآكل قطعة من الحلوى . . وأنت ؟ . . .

أقام لونجمار فى پارى خاملا . وقد بقيت له بضع مئات من الفرنكات من خدمته فى كوشين شين . فأضاعها للتو . وكان يستيقظ فى الظهر ويذهب للجلوس على شاطىء لكسمبرج بين أزهار معدمة ، فقد انتهى فصل الربيع ، وكان يلقى برأسه بين يديه وقتا طويلا حتى أن أصابعه قد تركت اثراً فى وجنتيه . وقد قضى أيام الشتاء فى منتدى حيث يقيم منعزلا لا يقرأ الاخبار ولا يلعب البليارد . رأى هناك ، فى الخريف وجها يعرفه هو نويلهاك ولد قروى غليظ . كان يساعد والده فى الزراعة فى أوڤرن . ثم اشترى عينا مهملة فى بلدته حيث أخذ يرغب المستحمين فى مياهها . وقد أقبل على الاربعين ولا يزال يافعا . قدم زجاجاته إلى لونجمار وأخذ يشرح له مشروعه .

عل بعد خمسين كيلومترا من كلير مونت ، على شاطىء بحيرة ، وعلى قاعدة جبل من البازالت تقع المصحة . وكان يسكن البلدة خمسة عشر من الماعز .

وقد ورث نويلهاك عن والده بعض المساكن الصغيرة التى صارت فيما بعد أكواخا للأجانب . وأمام هذا البناء يقع فندق قيصر الذى يتسع لثلاثين إلى أربعين سائحا . وهم يأملون فى عمل

ملهى فى المستقبل وقد ابتدأ برأس مال صغير . ولكن من يعرف فى المستقبل ؟ واخيرا طلب إلى لونجمار أن يرافقه ليكون طبيب المصحة . وكان لونجمار شهيرا فى عالم الطب . وماضيه فى الخدمة العسكرية الطبية مجيد وقد عهد فيه أصدقاؤه أستاذا عظيما . أجاب !

ــ أن حماماتك مختبئة . لا يأتى إليها البته إلا بعض الأوربيين المصابين بداء الخنازير . فأذا ذهبت إلى هناك فسأقيم الشتاء كالصيف .

وقد قبل دون معارضة المرتب الضئيل الذى عينه له نويلهاك .

فى الغداة ذهب ليتجول فى پارى ليشترى قليلا من الثياب والآلات والكتب ، نحو الخامسة مساء . لما أن أنتهى من شارع شامپ ـ أليس ، رأى نفسه امام ممثل جوبجنول . وقد عقد حبل طويل إلى جذوع الأشجار كيما تقفل الحلقة التى حجزت لجمهور النظارة . وفى الخلف جمهور الأطفال . لمح وسط النظارة شيخا فى ردنجوت باهت اللون ، يصوب نظره الحائر بين السماء والأرض . هذا هو المسيو فيلير دى سيساك الذى أثارت رؤياه ذكريات لونجمار .

صافحه مسيو فيلير وهو يبحث عن عبارة يقولها ولكنه عجز عن ذلك . قال لونجمار بحنان وعطف :

— هلم ، سأدلك على عمل .

— هذا حسن . ليس عندى أعمال هذا المساء .

قال أنه يقطن شارع تروتو :

وقد جلسوا فى الظلام ، فى أحدى حانات مونمارتر . وكانوا يتبادلون النظرات وهم مشدوهين لايعرفون أهو يوم أم مائة سنه لم يروا أنفسهم خلاله .

لم يتحدثوا عنها . ولكن كلا منهم يتخيلها قريبة منه . قال لونجمار وهو يكسر البندق أنه سيسافر

— سوف أدلك على عمل .

سدرت عينا الشيخ وصاح :

— أترك پارى ! ليس هذا بالأمكان ! والأعمال ! لاحياة إلا فى پارى .

فلم يستطع لونجمار ذى الأشجان والاحزان . أن يمنع نفسه من الابتسام ـ هلم إذا ستصير هناك مفتشا ، مراقبا أومديرا

رنت هاته العناوين فى رأس الشيخ الذى خلت يده من

العمل فتواعدا على الغداة . وقد حدث لونجمار نفسه :

— أنه أقوى مني . حتى ليبدو كأنه صهري .

***

لم يكن فصل الحمامات سيئا بالنسبة لنويلهاك . فقد جاء بعض الروسيين وعائلة من ليونى ليأخذوا المياه من مصحته . أقام مسيو فيلير قريبا من الينبوع وتذوق المـاء بقابلية . ولم يعينه نويلهاك فى وظيفته حقا . وقد كان يدفع له من مرتب لونجمار . لقد قال له الطبيب :

— دعه يظن أنك تعطيه مرتبا . ولا تعلمه أن هذه هى نقودى التى يقبضها أما أنا فسأدبر أمرى .

أخذ يمرض بعض الروسيين ودعى للتطبيب فى الجبل المجاور .

رحل السياح كرحيل السنونو الواحد تلو الآخر . جاء الشتاء وغطى الوادى بالسحب وقد انتشر الضباب حتى لتتراءى لك اشجار الشربين الهائلة كالخيالات . وقفل الأفق ببحر من الظلام

وفى المصحة كنت ترى الصور التاريخية الحمراء والصفراء ، وقد تقشرت . وفى فندق قيصر ، فى الواجهة ، كان يرى مسيو

فيلير يلعب الدومينو مع صاحب الفندق ، فى حين جلس لونجمار يدخن غليونه ، وقد حك قبضته اليسرى بإبهامه الأيمن ثم حدث نفسه بصوت منخفض الحمى الشديدة ـ والألم الحاد فى السوداء ، والسعال ثم الضيق الذى يعانيه ، والألم الكبير فى منكبه الأيمن . لاينقص شيء . أى حملة جميلة تلك التى انصبت على .

وللمرة الأولى منذ عام وأربعة شهور وستة أيام ، علت ـ حمه الابتسامة

استدراك

وقعت بعض غلطات مطبعية ولغوية نتركها لفطنة القارىء وقد ذكر فى الصحيفة الأولى أن حقوق الطبع محفوظة للمؤلف وهذا خطأ